الفصل الأول
علم التاريخ
الإنسان كائن تاريخي

التاريخ الإنسانى تاريخٌ طويل؛ فقد بدأ الإنسان البدائى فى التأريخ لحياته اليومية وذلك من خلال تلك الرسوم التى خطَّتها يداه على جدران الكهوف والتى تعتبر، من المصادر الرئيسية التى استقى منها المؤرخون والباحثون كل ما دون ويدون عن التاريخ القديم.

لقد بدأ اهتمام الإنسان بالتاريخ وتدوينه وتفسيره منذ فجر الخليقة، وكان تفكير الإنسان وقتها تفكيرًا أسطورياً وتتضمن ذكر الخوارق وحكايات تحكى العناية الإلهية، وأقاصيص تقص عن أبطال الشعوب القديمة[1].

فالتاريخ هو سجل العصور الغابرة، وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء الإنسان إلى صناعة الكتابة. بل لقد كان الناس قبل هذا العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة ويتناقلونها ابناً عن أب على شكل روايات شفوية[2].

ولما استقر الإنسان فى الوديان، وعرف التحضُّر؛ بدأ يؤرِّخ الوقائع الكبرى وحوادث الدول والملوك؛ فكانت مصر القديمة من أولى الحضارات الإنسانية التى

---

(١) هرنشو : علم التاريخ . ترجمة عبد الحميد العبادى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧ م، ص٢٤.

(٢) نفسه، ص٢٣.

عرفت التدوين التاريخى؛ وهو ما نراه أيضاً فى الحضارات الشرقية الأخرى: البابلية. . الآشورية.. الصينية.. الخ .

وتعددت أصول كلمة التاريخ ومعانيها وإن لم تبعد كثيرا عن مضمونها، فقد قيل أن أصل كلمة تاريخ قد أخذ من الأصل السامى العام لكلمة (ورخ) وهى التى جاءت فى اللغة العربية فى كلمتى (ياريخ) بمعنى القمر و (تدخ) بمعنى الشهر، ومن ثم يكون معنى كلمة تاريخ هو التوقيت، أى تحديد الشهر القمري[1].

وقد فرق الأصمعى بين اللغتين فقال : بنو تميم يقول ورخت الكتاب توريخاً.

وقيس تقول أرخته تاريخا.

وعن هذه الكلمة أيضاً يقول الصولى : تاريخ كل شئ غايته ووقته الذى ينتهى إليه زمنه، ويقول السخاوى: أنه التعريف بالوقت الذى تضبط فيه الأحوال من مولد الرواة، والأئمة،ووفاة، وصحة، وعلل، وبدن ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح[2].

ويرى البعض أن كلمة: "تاريخ" أو "تأريخ" أو توريخ " معربة عن الفارسية؛ فقد ذكر البيرونى، والخوارزمى أن كلمة تاريخ فارسية الأصل وعربت.

ويرى البعض أن الكلمة لها أصل فارسى من (ماه روز)، مما يدعو إلى الاعتقاد أنهما أرادا من ذلك القول بأن كلمة تاريخ تعنى تعيين بدء الشهر.

ومن ثم فقد ربطا بين هذا المعنى وبين الرواية التى رواها العديد من المؤرخين والتى تقول بأن المسلمين أخذوا من تاريخ الهجرة تقويما لهم وذلك عملا بنصيحة الهرمزان للخليفة عمر بن الخطاب.

كما قيل أن التقويم الهجرى أخذ فى الأصل من اليمن، فقد ذكر السخاوى، أن أول من أرخ التاريخ هو يعلى بن أمية الذى كان باليمن، فقد كتب إلى عمر بن الخطاب كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر، فشرع فى التاريخ.

---

(١) أحمد رمضان أحمد : تطور علم التاريخ الإسلامى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م، ص١٥.
(٢) عبد المنعم الجميعى : منهج البحث التاريخى. ط١، القاهرة ١٩٩٢ م، ص٩.

وروى ابن أبى خثيمة قال : قدم رجل من اليمن فقال رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر : هذا حسن فأرخوا.

ويعلق روزنتال عن أصل كلمة (تاريخ) فيقول : وأغلب الظن أن أصلها من العربية الجنوبية، حيث يوجد مركز ثقافى يمكن أن يصاغ فيه مثل هذا التعبير الفنى، وليس ببعيد أن يكون شكلها الأصلى هو (توريخ) وان (تاريخ) هو التكوين الفنى القديم من (مؤرخ، ومورخ).

ويبدوا واضحا أن كلمة (تاريخ العربية) تعنى كلا من (الزمن) (والحقبة) وأنها لم تظهر فى الأدب قبل الإسلام، كما أنها غير مذكورة فى القرآن ولا فى الأحاديث النبوية، وأن الحديث الوحيد الذى أشار إلى التقويم الإسلامى، استعمل كلمة (عد) وأنها استعملت الأول مرة فى الآداب العربية مع أخبار التقويم الهجرى.

كذلك اختلف العرب قبل الإسلام فى تعريف الوقت والزمن وذلك من الناحية اللغوية، فالوقت كما يقول علماء العربية: هو مقدار من الزمن، وكل شئ قدرت له حينا، فهو مؤقت، وإن الوقت تحديد الأوقات كالتوقيت.

وقالوا فى الزمان، أنه الدهر، وعارضهم آخرون فقالوا : يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر. أما الدهر فلا ينقطع، والزمان يعنى كذلك الفصل من فصول السنة.

كذلك اختلفوا فى معنى الدهر، وذلك بسبب مسألة القدم والحدوث، وصلة التفاسير بهما، فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوه : " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " وجاء فى الحديث عن أبى هريرة، قال الله تعالى : " يؤذينى ابن آدم يسب الدهر، وإنما أنا الدهر، أقلب الليل والنهار "[1].

وتدل الكلمة على معان متعددة، منها: تعريف الوقت، أو ذكر الأخبار الخاصة بمصر أو جيل. وكيفما كان فإن كلمة : " تاريخ "، تدل بصفة عامة على العلم الذى يسمى إلى إنقاذ الحقائق الماضية من النسيان، وهى تقابل الكلمة: "Historia"، التى

---

(١) أحمد رمضان : المرجع السابق، ص١٧.

تدل ــ هى الأخرى ــ على العلم الذى يبحث حوادث الماضى، وإلى اشتقت منها أسماء علم التاريخ فى معظم اللغات الأوربية[1].

وقد دار نقاش طويل حول مدلول هذه الكلمة فى اللغات العربية والأوربية، ففى اللغة العربية يرى البعض أن كلمة تأريخ بالهمزة أدق من كلمة تاريخ " بالألف اللينة " ويرى البعض الآخر عكس ذلك، ويبدو أن هذا اللبس ذاته موجود فى اللغات الأوربية فكلمة History الإنجليزية، وكلمة Histoiré الفرنسية، وكلمة Geschichte الألمانية تستعمل غالبا للمعنيين وأن كان بعض العلماء قد حاول التمييز بينهما فأطلق بعض الفرنسيين مثلا Histoiré " بـ H كبرى " على الماضى، وكلمة Histoiré على العلم، واحتفظ الألمان بكلمة Geschichte للمعنى الأول وكلمة Histoire للمعنى الثاني[2].

إرهاصات (مقدمات علم التاريخ)

مما لا شك فيه أن التاريخ علم قديم يرجع إلى الوقت الذى ترك فيه الإنسان آثاره على الصخور، فالإنسان الذى عاش فى الكهوف زين كهفه بتلك النقوش البدائية التى تصور حياته ليراها ويدرسها من يأتى بعده من بنيه أو عشيرته. وربما كانت تلك الصور التى حفظتها لنا كهوف الإنسان الأولى، هى أول ما دون الإنسان فى تاريخه. وهذا يؤدى بنا إلى القول بان التدوين التاريخى يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، إذ عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها فى تلك الصور التى يحفرها على جدران كهفه البدائى. وبالتالى نستطيع القول بان التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخى، إذ انه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التى تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض. غير أن علمنا

---

(١) عبد المنعم ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى. ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧ م، ص ١٣.

(٢) عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص١٣.

بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة ألاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى الحياة الإنسانية الطويلة[1].

وقد تقدم أسلوب التأريخ فى الحضارتين اليونانية والرومانية، وكان قد بدأ هناك أسطورياً ـ كما هو الحال فى الإلياذة والأوديسة لهوميروس ـ ثم تخلَّص من الأسطورة والصياغة الشعرية شيئاً فشيئاً، ليظهر مؤرِّخون من أمثال : هيرودت وثوكوديدس، وبوليبيوس، واسترابون الخ.

مصر القديمة

لم يكن التاريخ لدى المصرى القديم سوى ضرب من المثولوجيا أو قصص أسطورية ومما يجدر ذكره أن الملاحظات اليسيرة عن مغامرات الفراعنة المصريين والقوائم القليلة لأسماء الملوك التى حفظت، كان مبعثها جميعا الرغبة فى إكبار شأن الفرعون[2] الحاكم وذكر أحداث حياته. وأخذت الكتابة التاريخية فى بابل صورة النقوش المرسومة على المبانى. وظهرت عند الآشوريين وثائق حوليات ملكية فى

---

(١) اسماعيل أحمد ياغى : مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه. مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٤١.

(٢) فرعون فى القرآن الكريم هى تعريب "برعا" المصرية القديمة، وهى اسم مزجى مركب من شقين : بر + عا والشق الأول يعنى البيت أو الدار، والشق الثانى "عا" صفة بمعنى الكِبَر أو العِظم، فهو البيت الكبير أو البيت العظيم. وتدخل "بر" فى تراكيب مزجية عديدة مثل : "بر + عنخ" أى بيت الحياة، يعنون دار الكتبة، وحين تأتى "برعا" المصرية القديمة على المزجية فهى تفقد معناها الأصلى كبيت كبير أو بيت عظيم، وتصبح كُنية يُكنى بها عن شخص الملك مهابة وتفخيماً، كما قال العثمانيون فى خليفتهم "الباب العالي". والثابت لدى علماء المصريات أن "برعا" لم تصبح اسماً دالاً بذاته على شخص الملك بحيث تستطيع أن تقول : جاء "برعا" وقال "برعا" إلا منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة، عصر الرعامسة الذين كان منهم موسى. ومن إعجاز القرآن أنه يوم كانت اللغة المصرية القديمة، وكان التاريخ المصرى القديم طلاسم مطلسمة عند العالم أجمع، بل وعند المصريين أنفسهم، لم يعلم فقط معنى "برعا" فى اللغة المصرية القديمة، وإنما علم أيضاً منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر، فخص بها فرعون موسى وحده، أما حين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا فرعون موسى – كما ترى فى حديثه عن الملك الذى استخلص "يوسف" لنفسه وجعله على خزائن الأرض – فهو يقول : "الملك" لا يخطئ مرة واحدة فيقول فرعون (رؤوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن، ص ٣٣-٣٤).

تسلسل حول مغامرات الحكام فى الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور. وبطبيعة الحال لم يظهر أثر للحاسة الناقدة فى هذا التسجيل البدائى للتاريخ. وكان الهدف المقصود من هذه النقوش هو تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه فى نشر الأجيال التالية، ولذلك كانت الحقائق التى تهون من شأنه وتشوه ذكراه تحذف جميعا ولا يشار إليها. وتغلب على تلك الوثائق والنقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المبانى المشيدة للآلهة[1].

ويرى بارنز أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفًا تاريخيًا حقيقيًا، أو كما قال بريستيد "كتابا تاريخيا ضخما" وساعدت على حفظ مصادر وافية وقيمة للمعلومات التاريخية فى مقابر الملوك والقصور والمعابد والآثار. ولم تهتم حكومة بتدوين أخبارها مثلما اهتمت الحكومة المصرية فى العصور القديمة. فقد اهتم الملوك والأمراء والعظماء بتسجيل أعمالهم ووصف مناحى الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحاولوا إعطاء الخلف صورة واضحة عن حياة السلف، وكانت فلسفتهم التاريخية هى الاستعداد فى هذه الحياة الدنيا للحياة الآخرة، فهذه الحياة فى نظرهم ليست دار قرار ولا دار عدالة. وإذا كان المصريون قد اهتموا بتاريخهم، فقد قامت محاولات فردية من بعض ملوكهم الأقدمين لتشويه معالم تاريخ من سبقوهم، ولكن لحسن الحظ لم تكن أغلب هذه المحاولات ناجحة[2]

مانيتون

مانيتون هو مؤرخ مصرى قديم من مدينة سمنود فى محافظة الغربية، كان كاهناً فى أيام البطالمة فى عهد الملك بطليموس الثاني(فيلادلفوس ٢٨٠ ق.م) وكان حكمهم من الإسكندرية. وقام هذا الملك بتكلفة مانيتون بكتابة تاريخ مصر القديم.

واعتمد مانيتون فى كتابه على الوثائق التى خلفتها الحضارة المصرية والتى كانت موجودة بدور حفظ الوثائق بالمعابد، بالإضافة إلى كل ما وجده فى متناول يده من وثائق الإدارات الحكومية وغيرها.

---

(١) ياغى : مصادر، المرجع السابق، ص١٤٢.

(٢) نفسه، ص١٤٣.

وتميز كتاب تاريخ مانيتون عن كل الوثائق السابقة لأنه قام بتقسيم الأسرات. حيث قام بتقسيم التاريخ المصرى الفرعونى إلى أسرات على أساس:

١. بانتقال العاصمة من مكان لآخر كان يبدأ أسرة جديدة.

٢. بظهور مظهر حضارى جديد كان يبدأ أسرة جديدة.

٣. إذا تولى الحكم شخص غير ولى العهد (بن الملك) كان يبدأ أسرة جديدة (حيث كانت الملكية عند المصرى القديم ملكية مقدسة فليس من حق اى شخص ان يمسك الحكم بعد وفاة الملك سوى ولى العهد، ولكن إذا لم يوجد إبن للملك ومسك الحكم شخص آخر فانه يبدأ بأسرة جديدة.

٤. إذا كان ملكا حكم مصر أيام احتلال وبعد انتهاء هذا الاحتلال فإنه يبدأ أسرة جديدة على رأسها نفس الملك لأنه فى المرة الثانية حكم حكمًا منفردًا.

لسوء الحظ فقدت النسخة الأصلية من تاريخ مانيتون فى حريق مكتبة الإسكندرية فلم يصلنا من هذا الكتاب إلا مقتطفات نقلها بعض المؤرخين من هذا الكتاب قبل حرقه، مثل المؤرخ اليهودى "يوسيفوس"

اليونان :

يعتبر التاريخ الإغريقى فى رأى كولنجوود ليس تاريخاً أسطورياً، وإنما هو من قبيل البحث العلمى. إنه محاولة للإجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الإنسان أنه يجهلها، وهو ليس بالتاريخ الدينى وإنما هو تاريخ إنسانى، والمشاكل التى يتصدى لعلاجها ليست من قبيل الإلهيات، وإنما هى من قبيل أعمال الإنسان ونشاطه[1].

هيرودوت

المؤرخ هيرودوت أو هيرودوتس باللغة الإغريقية واسمه مركب من لفظين هما :

---

(١) كولنجوود : فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨، ص ٥٧.

" هيرا " الآلهة اليونانية الشهيرة - و " دوت " أو " دوتا " بمعنى أعطى أو أهدى فالاسم يعنى هدية هيرا أو عطاء هيرا عاش هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد (٤٨٤ ق.م. - حوالى ٤٢٥ ق.م.)

إن عظمة هيرودوت لتبرز فى صورة قوية تتضاءل أمامها أية صورة أخرى، إذا ما ذكرنا أنه بوصفه إمامًا للتاريخ، كانت له نزعته الخاصة قياسًا إلى تلك الاتجاهات التى طبعت التفكير الإغريقى فى عهده[١].

وهيرودوت نظر إلى التاريخ ورأى أنه يشتمل على البحث والتحقيق فى أحداث الماضى وتسجيلها، ولم يكتفِ بذلك بل رحل وشاهد بنفسه الأحداث المعاصرة له والتى كتب عنها وخاصة الصراع مع الفرس، ولكن كتابات اليونان عامة كانت أسطورية لم يكن فيها من التاريخ إلا القليل ومن الخيال الشئ الكثير والتى حولت اسبرطة إلى معسكر تفوح منه رائحة الحرب والدم[٢].

الرومان

وكانت نظرة الرومان أكثر واقعية مما جعلهم يعنون بتفسير الوقائع وهذا بارز فى كتاب " حياة العظماء " لبلوتارك (ت حوالى ١٢٠ م) حيث لم يكتف بسرد أحداث الماضى بل علق عليها وبذلك كان تاريخه حافزاً ومصدراً للعظة والاعتبار[٣].

العرب قبل الإسلام

لقد كان الاهتمام بالتاريخ والعناية به أحد الوسائل التى اعتمد عليها العرب فى التأكيد على هويتهم وإبراز شخصيتهم بين الشعوب. فمنذ عصر ما قبل الإسلام

---

(١) كولنجوود : فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨، ص ٧٢.

(٢) فاروق عمر فوزى : التدوين التاريخى عند المسلمين. مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، ٢٠٠٤ م، ص٢٠.

(٣) فاروق عمر فوزى : التدوين التاريخى عند المسلمين. مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، ٢٠٠٤ م، ص٢٠.

كان هناك قصّاص يروون "أيام العرب[1] وأخبارها " ويحفظون " أنسابها " ويفاخرون بها بين بعضهم مع نسبة أوفى من الشعر الموضوع لتقوية تأثير القصة. وهذه ظاهرة تجلب الانتباه، ويبدو أن أسبابها تتصل بظروف العرب فى صدر الإسلام. فقد كان للظروف السياسية والعوامل الجغرافية أثرها، إذ أن العصبية والتنافس بين عرب الشمال (مضر) وعرب الجنوب (يمن) كان مسئولة بالدرجة الأولى عن مثل هذه الأخبار، ولعلها أدت إلى بعض التعصب عند نسابى عرب الشمال. وقد تكون المسافات البعيدة سبباً أعاق علماء الشمال من زيارة اليمن والحصول على معلومات مباشرة عنها، ثم إن هؤلاء الرواة الأولين هم أقرب إلى القُصاص منهم إلى المؤرخين : وهكذا وصلت إلينا روايات ضئيلة القيمة خالية من الفكرة التاريخية. ومن ناحية أخرى يحتمل أن يكون لفكرة التاريخ الثابت (التقويم) لدى اليمانيين أثر فى إحداث تاريخ ثابت (التاريخ الهجرى) لدى المسلمين[2].

ويرجع عدم تدوين العرب لتاريخهم فى العصر الجاهلى إلى انتشار الأمية فى مجتمعهم القبلى وعدم معرفتهم الكتابة واضطرارهم للاعتماد على الذاكرة فى حفظ الأحداث وروايتها شفهيا[3].

وبقيت الرواية الشفوية هى الغالبة وكان أسلوبها قصصياً ولذلك سمى رواتها بالقصاص ومنهم كعب الأحبار(ت ٣٢ -٣٤ هـ / ٦٥٢ - ٦٥٤ م) ووهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمى.

---

(١) أنظر، الميدانى : مجمع الأمثال، الباب التاسع والعشرين، ج٢، ص ٢٦٠، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٩٤ - ٢٩٥، ابن الأثير ج١، ص ٣٤٣ وما بعدها، ابن هشام: السيرة،ج١، ص ١١٧ -١١٩، أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى : ٢٠ / ١٣٢، القلقشندى، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٩٠، جواد على المفصل ج٥، ص ٣٣٣.

(٢) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٥.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ٤.

وأخبار الحوادث التى وقعت قبيل عصر النبى ﷺ غامضة ومشوهه[١].

وكانت حمْير وكهلان تؤرخ بالتبابعة وسيل العرم وظهور الحبشة وإزالتها وغلبة الفرس. وتؤرخ العدنانية بهلاك جُرهم بالحرم وبتفرق ولد نزار، وبمأقط[٢]، وبحجة الغدر بين يربوع بن حنظلة واليمن قبل الإسلام بـ ١٥٠ عاماً، وبأيام البسوس[٣]، وجبلة[٤]، والكُلاب. والكُلاب بين أبناء آكل المرار بعضهم البعض والكُلاب الثانى بين تميم واليمن.

وحاولوا تمجيد عرب اليمن بأن نسبوا إليهم أمجاداً فى الحرب والصنعة واللغة والأدب، وحتى فى الدين، ليدللوا على أنهم سبقوا عرب الشمال فى أمجادهم، أو أنهم لا يقلّون عنهم فى ذلك[٥].

ورغم تحيز معظم القصاص إلى تاريخ اليمن ومبالغتهم فيه فإن المؤرخين الذين ظهروا فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى نقلوا منهم فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الإسلام. وقد دخل من خلال كعب الأحبار ووهب بن منبه الكثير من الأخبار الإشارات التى تتعلق بالعرب قبل الإسلام وأخبار الأنبياء السابقين مما عرف بإسم " الإسرائيليات "[٦].

وفى شمال الجزيرة، فقد كان لدى المناذرة " كتب " تحوى أخبار عرب الحيرة

---

(١) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٤٦.

(٢) مأقط يوم لبنى أسد على كندة اليمانية قتلوا فيه حَجْرا والد امرئ القيس الشاعر.

(٣) البسوس بنت منقد السعدية خالة جساس قاتل كليب، وإليها تنسب وقائع الحرب بين ابنى وائل: بكر وتغلب.

(٤) جبلة فى عالية نجد بين تميم وذبيان من جهة وبنى عامر وعبس من جهة أخرى.

(٥) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٤.

(٦) فاروق عمر فوزى : التدوين التاريخى عند المسلمين. مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، ٢٠٠٤ م، ص٣٩.

وأنسابهم وسير أمرائهم، وكانت هذه محفوظة فى كنائس الحيرة. كما أنهم كانوا يعرفون الكثير من الأخبار الفارسية،[1] والمناذرة كانت لديهم كتب تتناول بالتفصيل أخبار عرب الحيرة وأنسابهم وسير ملوكهم وهى الكتب التى كانت محفوظة فى بيع الحيرة والتى أفاد منها هشام بن محمد بن السائب الكلبى فى كتابه عن الحيرة، والتى استقى منها ابن هشام والطبرى وغيرهما أجزاء كثيرة من مادتهم التاريخية[2].

وكانت لدى عرب الشمال روايات شفوية من قصص عن آلهتهم وروايات عن شؤونهم الاجتماعية ومآثرهم. ويدور جلُ تلك الروايات حول غزواتهم ومعاركهم (الأيام) وحول أنسابهم، وهى تتّصل بالتنظيم الاجتماعى وبالآراء والمثل الاجتماعية، وفى طليعتها المروءة، أو مجموعة الفضائل البدوية، وفكرة النسب، أو شرف الأصل، وفكرة الحسب، أو نبل الأعمال والمآثر. إذ يلزم الأفراد أن يعرفوا آباءهم والمآثر التى قاموا بها. كما أن " الأيام " تجد عناية خاصة فى المجتمع القبلي[3].

وكانت هذه الأيام تتخللها قصائد شعرية وطرائف وللأسف لم تصلنا هذه "الأيام" كاملة لأنها ظلت تنتقل شفهيا مدة طويلة حتى لحقت بقاياها عصر التدوين فأتتنا فى صورة شذرات متفرقة فى نثر رصين إلى جانب الشعر معظمها كتب الأدب والتاريخ وإلى جانب حفظها لأنساب العرب الجاهليين، وأمدتنا بمعلومات قيمة عن أحوال العرب قبل الإسلام وكشفت لنا عن روح الفروسية العربية، ومكنتنا من تتبع نشاط كثير من القبائل العربية فى العصر الجاهلى وعبر فترة ظهور الإسلام، وهو أمر أماط اللثام عن الظروف التى

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٤.

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ٧.

(٣) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٤.

أحاطت بظهور الإسلام والقوى التى اتخذت مواقف متباينة من هذا الدين الجديد[1].

الإسلام والتاريخ

وليس من شك فى أن الإسلام كان نقطة تحول هامة فى حياة العرب فى كافة المجالات، وتعد كتابة التاريخ العلمى باللغة العربية وتدوين المادة التاريخية تدين بوجودها للدين الإسلامى، إذ تميزت الحياة الفكرية العربية بعد ظهور الإسلام بمظهرين هامين طغيا على كل تيار آخر، وهما :

القرآن والحديث، فقد كانا من ناحية نقطة الوصل بين القديم والحديث لأنهما عاشا فترة من الصدور حفظاً ثم انتقلا إلى التدوين كتابة ـ أى عندهما التقت الرواية الشفهية التى هى مظهر من مظاهر الماضى بالتدوين المرتبط بالمظاهر التجديد، وكانا من ناحية أخرى ـ المحور الذى دارت حوله أبحاث كثيرة نتج عنها ظهور علوم عربية جديدة كاللغة والأدب والبيان والتفسير والفقه والنحو والكلام، فضلاً عن أنهما كانا عاملا هاما من عوامل ظهور علم التاريخ وتدوين الأحداث التاريخية[2].

وقد وجدنا أن القرآن الكريم قد عمق الإحساس التاريخى عند العرب، والمسلمين حين أشار إلى الأمم والقبائل والأنبياء المسلمين، وقص عليهم قصص الأمم الخالية بهدف إثارة العبرة فى نفوسهم كما أدت أن التاريخ معنى معينا على الإنسان أن يتبعه دائما، وهو أن الإنسان هو الذى يصنع مصيره بنفسه خيرا كان أم شراً فان حسن عمله فى حياته ازدهرت حضارته، وازدانت معيشته وأن أفسد حق عليه العذاب والدمار. يقول تعالى " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين".

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ٧.

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ١٤.

(٣) سورة النساء آية ٢٦.

أما تفسير القرآن فقد جعل بعض المعرفة التاريخية أمراً لا يمكن الاستغناء عنه[1]

أما الحديث فالصلة بينه وبين نشأة علم التاريخ عند العرب صلة وثيقة، فقد ظل الحديث منذ بداية الأمر محفوظاً، بالذاكرة يروى رواية شفهية، إلى أن دون تدوينا منظماً واكتملت مجموعاته الكبرى فى القرن الثالث الهجرى على وجه الخصوص، أما كيف كان عاملاً من عوامل نشأة علم التاريخ تدوينه، فإن المسلمين حين شرعوا فى تفسير الآيات القرآنية استعصى عليهم فهم بعض الأحكام والشرائع، فعمدوا إلى أقوال النبى المأثورة وأحاديثه المتداولة للاستعانة بها فى تفسير ما غمض عليهم،ولما كانت الأحاديث النبوية تروى إذ ذاك رواية شفهية سواء بواسطة من سمعها من النبى مباشرة أو من أخذها من رواة غيره، فقد دخلها شئ من التناقض والاختلاف، فاضطر المحدثون إلى تمحيصها وتنقيتها من شوائب الزيف التى علقت بها، وفصل الصالح منها عن المدسوس عليها، فدفعهم ذلك إلى تناول الأحداث والظروف التى قيلت فيها ومناسباتها ومعالجة الأخبار التاريخية المتعلقة بها، وكتابة الصالح من هذه الأحاديث فى النهاية بسنده المسلسل،أى الذى يبدأ بآخر راو للحديث ويتدرج إلى الشخص الذى صدر عنه الحديث، وهكذا بدأت المادة التاريخية تعالج من خلال حركة جمع الأحاديث وتدوينها وتمحيصها، وكانت الأحاديث الخاصة بالمغازى والأحاديث التى تتعلق بحياة الصحابة والجماعة الإسلامية هى أساس كتب السيرة والمغازى التى وضعت بعدئذ والتى تمثل بداية التأليف فى التاريخ عند العرب، ومن هنا جاءت الصلة الوثيقة بين الحديث والتاريخ، وترك الحديث أثرة البارز فى طريقة العرض التاريخى نفسه تمثل ذلك فى الإسناد، الذى ظل طابع الرواية التاريخية فترة طويلة من الزمن، إلى أن تخلص التأريخ منه واتخذ له طريقة خاصة وعرضا مستقلاً[2].

وعند مجئ الإسلام تطلبت الظروف الجديدة التى طرأت على المجتمع الإسلامى

---

(١) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٥١.

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ١٦.

ظهور أنماط جديدة من المعرفة التاريخية وكان من أبرزها ظهور الوثائق السياسية فقد كان من أول أعمال الرسول ﷺ الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود.

وقد كان ذلك بمثابة المعاهدة الأولى فى الإسلام، ثم الرسالة التى أرسلها ﷺ لعبيد الله بن جحش فى سريته المعروفة، وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركين، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده، وبينه وبين ملوك وحكام البلدان المجاورة أمثال ملوك فارس، والروم، ومصر والحبشة وغيرها.

ومع ذلك، فان التدوين فى التاريخ الإسلامى، لم ينتشر إلا حينما أقبل أهالى البلاد المفتوحة على الإسلام، وأقبلوا على تعلم العربية وذلك ابتداء من القرن الأول الهجرى، فكان معظم المؤرخين الأوائل فى الإسلام، هم المستعربون من العجم، لأن العرب فى أول الأمر، كانت تلحقهم أنفه من انتحال العم، لكونه من جملة الصنائع، وقد لاحظ ابن خلدون ذلك، فذكر فى مقدمته أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم[1].

وكان أول ما دون فى التاريخ الإسلامى ــ بطبيعة الحال ــ يعتمد على الذاكرة الإنسانية، لبعد التدوين عن أخبار الجاهلية، والعصر الإسلامى الأول، وان من يقرأ ما دون من الذاكرة العربية، يتجلى له أن أغلب التاريخ الأول، مستمد من السماع والمشاهدة، التى تنقل عن الشاهد العيان، بحكم أن الشاهد العيان يدرك الصورة والزمن، ولذا لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة،بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بالأسانيد جمع سند، أو حتى العنعنة، بمعنى رفع القول إلى قائله، أو ما يسميه المؤرخون المسلمون فيما بعد بالنقل المتواتر، الذى لا شبهة فيه، فكان الحفاظ هم الوسطاء، بين الخبر والمؤرخ، وهى طريقة للإجماع على صحة الخبر.

---

(١) أنظر، عبد المنعم ماجد : ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ص٣٦ - ٣٩.

فكانت طريقة الأسانيد للتحقق من صحة الخبر، أول ما ظهرت على أيدى المسلمين، إذ كانت مستلهمة من الطريقة نفسها، التى كانت قد اتبعت عن جمع الأحاديث النبوية، ليطمئن جامعو الأحاديث إلى اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ مما يبين أن التاريخ قد أخذ طريقة الحديث فى أول تدوينه، بل أن التاريخ، كان يجمع من نفس رواة الحديث، فى سلسلة من الإسناد[1] الموثوق بهم، بحيث أصبح المؤرخ نفسه يعرف باسم: " رواية"، أو " صاحب الأخبار "، ولكى تكون هذه الرواية التاريخية سليمة، فإنها لا بد أن تكون من مسلم، لان الرواية مثل البينة، لا تؤخذ إلا من مسلم، ومن ناحية أخرى، اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث، فى الجرح والتعديل، بحيث يقول المؤرخ السخاوى أن التاريخ استعمل لما استعمل الرواة الكذب، فكان هذا دلالة على جدية المسلمين، فى دراسة علم التاريخ.

وأكثر من ذلك، فان المؤرخ الإسلامى، لم يلبث أن تحول من مجرد إخبارى، غرضه استيعاب الأخبار، والمحافظة على كيفية اتصالها من حيث رواتها أو مصادرها، إلى البحث عن الخبر فى ذاته، زيادة فى تحرى الحقيقة، وأصبح هذا تطوراً جديداً فى كتابة التاريخ، إذ تخلص التاريخ من طريقة الحديث إلى مجال أوسع مستقل، فالمؤرخ لم يعد همزة الوصل بين الخبر وقارئه، إنما أصبح يعالج الخبر فى ذاته.

وبعد انتشار التدوين، وتمكن التاريخ فى النفوس، فان الرواية المسندة، لم تعد مصدراً كافيا لعلم التاريخ، فأبدلت أسانيد الأخبار بأسانيد الكتب،وهو ما عرف بالتاريخ السندى، أو أسانيد الكتب، وفى ذلك تطور علمى واضح فى اتجاه الموضوعية التاريخية، لا سيما وأن المؤرخين المسلمين فى أى وقت لم يكونوا

---

(١) الإسناد لغةً هو المعتمد، وسمى كذلك لأن المتن يشتد إليه ويعتمد عليه (محمود الطحان: (أصول التخريج ودراسة الأسانيد) ص١٥٧. أما فى الاصطلاح فهو سلسلة الرواة الذين نقلوا الخبر واحداً بعد واحد إلى أن يصلوا بالرواية إلى مصدرها الأصلى (فاروق حمادة: (المنهج الإسلامى فى الجرح والتعديل) ص ٢٣١.

يستطيعون أن يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التى استقوا منها أخبارهم، فكان حرص المؤرخين المسلمين، على ذكر الكتب التى استقوا منها أخبارهم فى معظم تأليفهم، إضافة جديدة لإبداعهم فى هذا العلم.

وتدل هذه البدايات على أنَّ نشأة علم التاريخ ــ وتطوره بعد ذلك ــ كان بمعزل عن أى تأثيرات من خارج النطاق الحضارى للجماعة العربية الإسلامية، فأوائل المؤرِّخين العرب / المسلمين لم يتأثروا بأعمالهم التاريخية بالمدوَّنات الفارسية أو اليونانية ــ أو غيرها ــ وإنما جاءت جهودهم نابعةٌ من مقتضيات خاصة بالجماعة العربية الإسلامية.

ووضع عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً هو التاريخ الهجرى، فأصبح عنصراً حيوياً فى نشأة الفكرة التاريخية. ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيت الحوادث (أو تأريخها) العمود الفقرى للدارسات التاريخية. وقام عمر بن الخطاب بتأسيس الديوان، أو سجلّ المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، وهذا أعطى الأنساب أهمية جديدة، وكان حافزاً إضافياً للاهتمام بدراسة الأنساب[1].

ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريبا بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيروى أن (معاوية بن أبى سفيان) أمر بتدوين ما يرويه له فى مجلسه (عبيد بن شريه) من تواريخ ملوك (اليمن) القدامى وغيرهم، وكان معاوية مولعا بمعرفه تواريخ الأمم السابقة، وان (عبد العزيز بن مروان) والى مصر (٦٥ – ٨٥ هـ) أرسل إلى (كثير بن مرة الخضرمى) أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول ﷺ إلا أحاديث أبى هريرة فإنها موجودة عنده.

ثم جاءت الخطوة الحاسمة فى التدوين، حين أمر (عمر بن عبد العزيز) أثناء خلافته (٩٩– ١٠١ هـ) أبا بكر بن حزم والى المدينة أن يدون أحاديث رسول الله ﷺ خوفا من ضياع العلم وذهاب العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدون (ابن

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٨.

شهاب الزهرى) ويزيد بن أبى حبيب المصرى وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى، فدون الفقه والتفسير وغيرهما .

نلاحظ أن بدايات علم التاريخ عند العرب سارت فى اتجاهين أساسيين ـ الاتجاه الإسلامى، أو الاتجاه الذى ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلى أو اتجاه "الأيام" وهذان الاتجاهان يعكسان التيارين الكبيرين فى مجتمع صدر الإسلام، التيار القبلى الذى يمثّل استمرار التراث القبلى، والتيار الإسلامى الذى يتمثل فى المبادئ والفعاليات الإسلامية. وكان كلّ من الاتجاهين غالباً فى مركز ثقافى، الاتجاه الإسلامى فى المدينة، دار سنة الرسول ﷺ، والاتجاه القبلى فى الكوفة والبصرة، المصريين الجديدين اللذين كانا مركزين فعّالين للقبلية. وقد كانت المدن الثلاث المذكورة مراكز النشاط الثقافى فى صدر الإسلام. وصار لكل اتجاه مدرسة تاريخية، وحصل تأثير متبادل بين المدرستين التاريخيتين، ثم بان تفوق الاتجاه الإسلامى أخيراً حين غلب اتجاه أهل الحديث فى الكتابة التاريخية[1].

وقد كان ترتيب المسلمين طبقات الرجال بحسب الأسبقية فى الإسلام أحد الأسباب التى جعلتهم يرتبون أخبارهم فى التاريخ الإسلامى ترتيبا زمنيا[2].

هذا وقد أعطيت المدن والأقطار المفتوحة حقوقا مختلفة وفقا لما بذلته من مقاومة فى وجه الفاتحين. وأحيانا أدى قام الثورات بعد الخضوع إلى تغيير هذه الشروط، ومن الواضح أن المحافظة على مثل هذه الحقوق يتعذر، إن لم يستحل بدون التأريخ المستمر للحوادث[3].

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٨.

(٢) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٥٢.

(٣) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٥٣.

وعى المؤرخ المسلم

ووجدنا فى كتب المؤرخين المسلمين آراء اجتهادية جديرة بالتأمل عن مفهوم التاريخ تدل على وعى المؤرخ المسلم بعلم التاريخ[1].

ففى رأى كثيرين من مؤرخى الإسلام القدامى، أن التاريخ أساسا هو لتسجيل أعمال الإنسان فى الماضى، حيث عرفه مؤرخو الإسلام الأوائل علم التاريخ بأنه هو الرواية أو الأخبار ومن يقوم به يسمى : إخباريا، أو راوية، أو صاحب أخبار، فعمل المؤرخ المسلم الأساسى: هو جمع الأخبار، حقاً أن الشئ المسجل قد لا يعنى شيئا عند المؤرخين، أو يوحى للإنسانية بشئ، حتى ولو كان خاصا بأناس وحوادث لا تهم أناسا آخرين، وأنه وان كان التسجيل يجوز على أساس مبدئى لما يقوم به المؤرخ فى كتابة التاريخ، إلا أنه يجعل من فكرة التاريخ مادة بلا روح، ومن المؤرخ أشبه بآلة تسجيل، وهو غير كاف لمجهوده فى وقتنا الحاضر، فضلا عن أن كثيرين من المؤرخين الإسلاميين كانوا يأتون بأخبار قد لا يقبلها العقل.

أو يرون فى التاريخ أنه يكتب لإبقاء الذكر، بالعمل على تتبع أخبار الصفوة، من الخلفاء والملوك والوزراء والعلماء وغيرهم، حتى أنهم كانوا يرددون من أقوال النبى: من ورخ مؤمنا، فكأنما أحياه، وأن ما أنفق الملوك والأغنياء من الأموال على المصانع والحصون لا يعادل الذكر فى التاريخ، بحيث اعتبر التاريخ أحسن ما يجب أن يعتنى به بعد الكتاب والسنة، ولكن المؤرخين بعامة لا يرون إطلاقاً أن التاريخ للصفوة وحدهم، حتى ولو كانوا من الأنبياء، ذلك لأن هؤلاء بشر ن وأن حياتهم ملك للتاريخ، وأن السرد يكون أولاً وأخيراً على أساس المناقشة قبل كل شئ أو يرون ـ مثل المؤرخ المصرى السخاوى ـ أن التاريخ بالأولى هو كيان الأمم، فلا توجد أمة أو دولة إلا ولها تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقلها خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، ولولا ذلك لانقطع الوصل، إذ النظرة السليمة تستشرف إلى معرفة البدائيات، وتشرئب إلى أدراك المنشئات.

---

(١) أنظر، عبد المنعم ماجد : ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩ م، ص١١ - ١٥.

وهذا مفهوم صائب للتاريخ، بسبب أن الماضى يعنى الروابط المشتركة بين عناصر الأمة الواحدة، حتى أعتبر التاريخ من أقوى الأسباب فى حفظ الأنساب، وأن تصرفاتها تكون على أسس من تقاليدها، وعصور التاريخ بالنسبة لها، هى عصور المجد والقوة، بحيث أن الحاضر هو عصر النمو لها، فهذه النظرة القومية للتاريخ، تحرص عليها كل الأمم، لا سيما الأمة العربية، التى ارتبط بعضها ببعض منذ نشأة الإسلام، ومع ذلك، فإن قصر التاريخ على كيان الأمم وحدها، قد يعتبر تعريفاً ناقصاً، وقصره على الماضى قد لا يجعل معنى للتاريخ فى الحاضر والمستقبل أيضاً.

أو يرون فى التاريخ الحصول على ملكة التجارب، بتصد المنفعة والعبرة، بالوقوف على تقلبات الزمن، بحيث يكون من عرفه كمن عاش وجرب الأمور بأسرها، وباشر الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجرباً، ويتجمل به الإنسان فى المجالس والمحافل، فالتاريخ هو حقل التجربة، فيه نماذج للأخلاق والوطنية، والأمثلة الصالحة، والقدوة الحسنة، يتقصى أحوال الماضيين من الأمم وأخلاقهم، والأنبياء وسيرهم، والملوك ودولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء فى ذلك، فى أحوال الدنيا، فكانوا فى ذلك يقتدون بالقرآن الكريم، الذى يتقصى أخبار الأمم الماضيين، وهذا دلالة على جلالة علم التاريخ، ولذلك كانت المؤلفات الإسلامية الأولى، يتوسع فيها لبدء خلق الأرض، حتى أنهم رددوا هذه الجملة المعرفة من حفظ التاريخ فى صدره أضاف أعماراً إلى عمره.

وانواقع أن هذا المفهوم، وإن كان مقبولا من البعض على أساس أن كل علم يظهر نتيجة للتجربة، فالطب ظهر من المعالجة، والتاريخ من تجارب الإنسانية، بحيث يجعل من يقرأه يدرك أشياء كثيرة من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة فى وقت قصير، آلا أن هذا المفهوم غير مقبول، بسبب أن التجربة الإنسانية واسعة، وأن التاريخ سوف يرتبط حينئذ بكل التجارب الإنسانية، التى لا تظهر قيمة المؤرخ، إلا من حيث أنه جامع لتجربة الغير، وقد نقرأ آلاف المعارك ولا نزداد فنًا

فى الحرب، ونقرأ ما حدث للأقوام ولا نتعظ، ونقرأ نصوص المعاهدات ولا نزداد حكمة، ومع ذلك، فانه ينبغى وضع دروس الماضى فى خدمة المجتمع الحديث للإقتداء بها، وإن كان لا يقصد طبعا التجربة فى ذاتها، المتخلصة من الشوائب، التى تعتبر تجربة مثالية، وإنما يقصد بها ما مر بالإنسان من تجربة لتعرض كما هى، مملؤة بالخير والشر فمن خلال هذا الاستعراض لمفهوم التاريخ فى بعض الكتب المؤرخين المسلمين، تبدو أقوالهم عنه غير محددة أو واضحة بل وأحيانا ساذجة، وهى آراء تتردد كثير بهذا المحتوى المقتضب فى كتب مؤرخى الإسلام القدامى.

بداية التدوين التاريخى عند المسلمين

لا خلاف بين الباحثين فى أن أول من كتب فى التاريخ لا يخرج عن أحد أربعة يتنازعون الأولوية فى هذا المجال وهم : زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م) ودغفل النسابة البكرى المتوفى سنة ٦٠ هـ (٦٨٠م) وعبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) وعبيد بن شرية الجرهمى المتوفى سنة ٧٠هـ (٦٨٩ م) [١].

أما زياد بن أبيه فقد ذكر ابن النديم أنه ألف كتاباً فى مثالب العرب،ربما كتبه بعد استلحاق معاوية إياه، وما أثاره هذا الاستلحاق من سخرية العرب واستيائهم، مما دفعه إلى تأليف هذا الكتاب للذود عن نفسه والحط من شأن الآخرين لتلافى تعييرهم إياه، وللأسف ضاع هذا الكتاب ولم يبق منه شئ يمكن الرجوع إليه[٢]

أما دغفل النسابة فينسب إليه كتاب آخر بعنوان "التظافر والتناصر" ويقال أنه كتاب أسمار وأحاديث كان يرويها للخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى كان محباً لمجالس السمر مقبلاً على سماع الأحاديث والنوادر لكن هذا الكتاب يكتنفه الشك،وإن صح تأليفه، فهو من قبيل كتب النوادر، وليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المعروف[٣]

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ١٨.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه، ص ١٩.

أما عبدالله بن عباس فينسب إليه بعض الرواة مدونات، بل يغالون فى ذلك فيذكرون أنه ترك عند موته من الكتب ما بلغ حمل بعير، ولكنهم لم يشيروا إلى محتويا هذه الكتب التى كانت على الأرجح مجالس ابن عباس التى كان يفسر فيها القرآن، والتى كان يعالج خلالها جوانب المعرفة أثناء تفسيره للقرآن وغيره، قام بتدوينها بعض تلاميذه فيما بعد[١]

أما رابع الشخصيات التى تستبق الأولوية فى كتابة التاريخ فهو عبيد بن شرية الجرهمى الذى سبقت الإشارة إليه والذى نسب إليه " كتاب الملوك وأخبار الماضيين " الذى عثر على جزء منه وطبع فى حيدر أباد[٢].

وأبان بن عثمان بن عفان (ت بين ٩٥ – ١٠٥ هـ - ٧١٣ – ٧٢٣ م) فهو أول من اشتهر بمعرفة المغازى معرفة دقيقة[٣].

ومع أن أحد تلامذته كتب مغازيه، إلا أنها توصف بأنها من الحديث، وإذا استثنينا إشارة إليه فى اليعقوبى فإننا لا نجد بين المؤرخين من نقل أو روى عنه، فى حين أنه يروى عنه فى كتب الحديث. ويبدو أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازى.

وكان أبان محدثا وفقيها أيضا فيذكر أن الزهرى قد أخذ عنه الحديث، كما يتردد اسمه كثيرا فى أسانيد الأحاديث، وهو يذكر أيضاً بين فقهاء المدينة، ويقال أنه كان يحفظ فتاوى والده ولكن شهرة أبان تستند كلية على معرفته التامة بالمغازى، فهو أول من صنف مجموعة خاصة تتناول المغازى وأن لم تتعد هذه صحفا تتضمن أحاديث عن حياة الرسول، وعده بعض الكتاب المحدثين مرحلة انتقال بين دراسة الحديث ودراسة المغازى[٤].

---

(١) نفسه، ص ١٩.

(٢) نفسه، ص ١٩.

(٣) يوسف هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار، مكتبة الخانجى، ط٢، ٢٠٠١ ، ص ١٩.

(٤) مرسى الشيخ : مرجع سابق، ص ٢١.

وهناك عروة ابن الزبير[1] صاحب كتاب " المغازى " أيضاً ومن معاصرى أبان بن عثمان وممن ألفوا أيضاً فى المغازى، وينتسب عروه بن الزبير من جهة الأب و الأم إلى أسرتين من أشراف قريش، فأبوه القائد العربى الزبير بن العوام،وأمة أسماء بنت أبى بكر. ولد عام ٢٣هـ،وكان زاهدا فى الدنيا، محبا للعلم، أمضى حياته بين الدرس و التدريس حتى أصبح من فقهاء المدينة، ولم يزج بنفسه فى الأحداث السياسية فى زمنه. وقد اهتم عروة فى كتاباته بالإسناد فى غالب الأحيان وهذا يضفى أهميه خاصة على كتاباته.وقد تناول بالكتابة الأحداث الاتيه:

١ -بعث الرسول، ونزول الوحى،وبداية الدعوة، وموقف قريش من المسلمين.

٢ - الهجرة إلى الحبشة وأسبابها ومقاومة قريش للدعوة.

٣- المغازى و رسائل النبى إلى الجهات المختلفة.

٤ - الفترة الأخيرة من حياة الرسول.

ولم يقتصر عروة على المغازى بل نال شهرة كبيرة بمعرفة الحديث[1] بل تعرض لفترة الخلفاء الراشدين فتحدث عن حروب الردة فى خلافة أبى بكر، وعن مواضيع أخرى جاءت فى رسالة عبد الملك بن مراون له.ويتميز أسلوبه بالسلامة والبعد عن المبالغة وكان يمهد للحادثة بمقدمة.

وأسلوب عروة فى التأليف بسيط،بعيد عن الإنشاء، فى حين أن نظرته واقعية وصريحة وخالية من المبالغات. وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وبخاصة من عائشة ومن آل الزبير، أسرته، وقد حصل على بعض الوثائق، كما أنه أشار إلى آيات قرآنية تتصل بالحوادث، ومع أنه يورد الشعر فى بعض الأحيان إلا أن هذا ليس نتيجة لأثر أسلوب الأيام، بل إنه يعكس حبه للشعر ودور الشعر فى الثقافة[2].

---

(١) انظر ترجمته فى: ابن سعد ٥/ ١٧٨، جمهرة نسب قريش ص٢٦٢، المعرفة والتاريخ ١/ ٣٦٤.

(٢) يوسف هوروفنتس : المغازى الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار، مكتبة الخانجى، ط٢، ٢٠٠١ ، ص ٣٤.

(٣) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٠.

وامتد اهتمام عروة بالتاريخ إلى عصر الخلفاء الراشدين، فتناول مثلاً الردة ومعركتى القادسية واليرموك، وهكذا نجد الاهتمام مبكراً بأحداث الأمة ولكن الروايات التى وصلت إلينا عن عروة قليلة مبعثرة، ولا تمكننا من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه، أو عن الهيكل الذى انتظمت فيه رواياته إن وجد.

ولنلاحظ هنا أننا إذا أردنا أن نتفهم تطور الكتابة التاريخية يلزمنا أن نلاحظ أن الدارسات، حتى فى المغازى، كانت أعمالاً جماعية، وأن فعاليات الأفراد تكون جزءاً من مدرسة. فكان كل واحد من حملة العلم يضيف دراساته وبحوثه إلى دراسات أساتذته، وبذلك يحفظ علم المدرسة التى ينتمى إليها، ويضيف إلى ما وصل إليه[1].

وإذا كانت مؤلفات عروة بن الزبير لم تصل إلينا، فقد حفظت لنا المصادر الباقية لدينا، الكثير من المادة العلمية والروايات التى كان مصدرها عروة، ففى سيرة ابن إسحاق ومغازى الواقدى وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى روايات كثيرة عن أحداث سيرة الرسول ﷺ ومغازيه عن عروة بن الزبير، وقد توفى رحمه الله تعالى سنة ٩٤ هـ[2].

وشُرَحْبيل بن سعد[3]هو الشخصية الثالثة التى تذكر فى تاريخ المغازى مع أبان وعروة[4]، وهو مولى بنى خطمة المدنيين، ويقال أنه دون قوائم بأسماء المهاجرين إلى المدينة، كما دون أسماء الرجال الذين اشتركوا فى وقعتى بدر وأحد، وربما ساعده على ذلك قرب عهد بأحداث الإسلام الأولى، وعمره المديد الذى نيف على مائة عام، إذ يرجح أنه توفى سنة ١٢٣ هـ ومعنى ذلك أنه شهد جزء من عهد الراشدين،ومكنته ظروف تواجهده فى المدينة بالذات من معرفة كثير من الأخبار

---

(١) الدورى : مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) عبد الشافى محمد عبد اللطيف : أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ٢٠٠٥ م، ص٢١.

(٣) مرسى الشيخ : مرجع سابق، ص ٢٣.

(٤) يوسف هوروفنتس : المغازى الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار، مكتبة الخانجى، ط٢، ٢٠٠١ ، ص ٤١.

عن المغازى،حتى ليقال أنه لم يكن أحد أعلم بالمغازى والبدريين منه ويعرف فى المصادر بأنه ثقة، ويقال أنه روى عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة وغيرهم[١]، ولكنه اختل عقله بعد كبره فلم يكن أحد يصدقه وخاصة لفقره.

ومن معاصرى عروة شراحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ / ٧٤٠). وهو بدوره يعكس تطوّر النظرة الاجتماعية حين يقدم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا فى الأحداث الكبرى، مثل البدريين، والذين اشتركوا فى معركة أُحد، وجماعة المهاجرين إلى الحبشة، والمهاجرين إلى المدينة، لما للمشاركة فيها من قيمة اجتماعية متزايدة[٢].

وقد بدأ التدوين التاريخى عند المسلمين. منذ القرن الأول للهجرة. ولا تزال بعض هذه المدوَّنات باقيةً إلى اليوم، مثل كتاب" التيجان فى ملوك حِمْيَر" لوهب بن منبه[٣] (ت ١١٠ هـ / ٧٣٢م) ورواه ابن هشام ويبدو أنه تصرف فيه كما فعل بسيرة ابن إسحاق ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبى الخرافى، وكان المعتقد أن وهباً لم يتناول التأليف سوى ما يخص وطنه اليمن، وخاصة أن كتب السيرة القديمة لا تذكر له جهداً فى هذا المجال، ولكن ثبت أن وهبا كان ذا ثقافة واسعة[٤] وقد تناول الفترة الملكية والمدينة من حياة الرسول وعالج تاريخ العقبة الكبرى واجتماع قريش فى دار الندوة والهجرة وغزوة

---

(١) يوسف هوروفنتس : المغازى الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار، مكتبة الخانجى، ط٢، ٢٠٠١ ، ص ٤٦.

(٢) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢١.

(٣) ابو عبد الله وهب بن منبه. مؤرخ يمنى، نشأ فى صنعاء من اصل فارسى، وولى قضاءها للخليفة عمر بن عبد العزيز، ولكنه اتهم بالزندقة فعزل وحبس ثم افرج عنه. وكان وهب متبحرا فى الاساطير القديمة، خصوصا الاسرائيلية منها، وهو من اوائل المؤرخين المسلمين الذين احاطوا باخبار الانبياء والاقدمين، ويشتهر بكتابه (التيجان فى ملوك حمير)، أو (ذكر الملوك المتوجة من حمير)، و(قصص الانبياء)، و (قصص الاخبار).

(٤) فاروق عمر فوزى : التدوين التاريخى عند المسلمين. مركز زايد للتراث والتاريخ، ط١، ٢٠٠٤ م، ص٥٠.

بنى خيثم، وذلك فى قطعة من المغازى وجدت فى مجلد ضمن مجموعة أوراق البردى التى اكتشفها بيكر Becker وينسب إلى وهب كذلك كتاب " المبتدأ " أى ابتداء الخليقة وهو أول محاولة عند العرب للكتابة فى تاريخ الرسالات، اعتمد عليه ابن قتيبة والمقدسى وأحمد بن محمد الثعلبى، ويقال أن وهباً كان يجيد عدداً من اللغات القديمة كاليونانية والسريانية والحميرية، وما يرويه عبيد بن شرية ووهب بن منبه عن اليمن، بالإضافة إلى ما يستنتج من النقوش المتقدمة الذكر هى كل ما وصلنا من معلومات عن العصر الجاهلى فى بلاد اليمن[1].

غير أنه كتابه مليء بالإسرائيليات والروايات التى كانت متداولة آنذاك شفاهة) . ويعتبر وهب بن منبه من رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازى والسير وهو من مواليد اليمن، فقد ولد فى قرية تسمى زمار بجوار صنعاء حوالى سنة ٣٤ هـ ومعنى هذا الاهتمام بالمغازى، والسير لم يعد مقصوراً على أهل المدينة وحدهم، بل أصبح الاشتغال بها موضع اهتمام من العلماء فى كل الأقطار الإسلامية، وقد أسهم وهب بن منبه إسهاماً طيباً فى إثراء حركة التأليف فى المغازى والسير وعاش حياة علمية ثرية.

وتدل دراسة المقتبسات فى ابن قتيبة (المعارف) والطبرى والمقدسى (البدء والتاريخ) على أن وهب بدأ بالخليقة، وتدرج إلى تاريخ العهد القديم، ثم إلى الأنبياء الذين ذكرهم القرآن مثل هود وصالح، بل حتى إلى بعض الصالحين مثل لقمان وأهل الكهف[2].

أما روايات وهب عن تاريخ اليمن فهى أسطورية، تأخذ من قصص الإسرائيليات والقصص الشعبى، مع كثير من الشعر الموضوع، وتتمشى مع

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ١٣.

(٢) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٤.

أسلوب قصص الأيام، وقد قدم وهب ملحمة نثرية يمانية شعبية لتجابه تفوّق عرب الشمال[١].

ولم يكن وهب دقيقاً، بل إنه لم يترفع عن الإدعاء الكاذب، ولذا فإنه يعدّ أخبارياً قاصّاً، ويعدّ السخاوى أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديين. وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة إلى وجهة المحدثين فى المدينة، ولكنه جعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ ما قبل الإسلام، وقدم أول نموذج للتاريخ العالمى متمثلاً فى تاريخ الرسالات. وهذا الاتجاه وجد صدى قوياً عند مؤرخ مشهور من مؤرخى المدينة، هو ابن إسحق[٢].

وكان عبد الله بن أبى بكر بن حزم الانصارى[٣] من أهل المدينة وجده الأعلى عمرو بن حزم الأنصارى من كبار الصحابة الرسول ولاه النبى على نجران باليمن، وولى أبوه قضاة المدينة فى ولاية عمر بن عبد العزيز وكان أبو حزم والد عبدالله ثقة فى رواية الحديث أسند إليه عمر بن عبد العزيز مهمة جمع الحديث فورث ابنه عبد الله هذه المواهب واختص برواية الحديث المتصل بالمغازى فبرع فى ذلك وروى عنه ابن إسحاق والواقدى وابن سعد والطبري[٤] روايات كلها تتعلق بأخبار الرسول فى المدينة والفترة المدنية من حياة الرسول ﷺ.

و عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى هو أحد أصحاب السيرة والمغازى على حد قول ابن قتيبة وهو أحد رواة ابن إسحاق والواقدي[٥]. وقد ولد فى المدينة من أسرة

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٤.

(٢) نفسه، ص ٢٤.

(٣) الشيخ : مرجع سابق، ص ٢٤.

(٤) يوسف هوروفنتس : المغازى الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار، مكتبة الخانجى، ط٢، ٢٠٠١ ، ص ٥٧.

(٥) نفسه ، ص ٦٤.

مدنية واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة وروى عنه محمد ابن إسحاق والواقدى، ومما أخذه عنه الطبرى نستطيع أن نلمح اهتمامه بتاريخ الخلفاء الراشدين وخاصة أخبار فتنة عثمان، ويحدثنا ابن سعد أن عاصم هذا رحل إلى دمشق يلتمس المساعدة فى بلاط الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقضى الخليفة دينه وأمره أن يجلس فى جامع دمشق يحدث الناس فى المغازى ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع إلى المدينة عام ١٠١ هـ وتوفى سنة ١١٩ هـ.

وينقضى جيل من كتاب المغازى والسيرة ويبزغ جيل آخر يتزعمه محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أشهر كتاب مدرسة المدينة على الإطلاق والذى تتلمذ على يديه فريق من كتاب المغازى والسيرة أو جيل جديد من هؤلاء الكتاب[١].

والهيثم بن عدي[٢] هو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر بن عدى بن خالد بن خيثم بن أبى حارثة بن جدى بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيء، الطائى الثعلى البحترى الكوفى، كان راوية إخباريا، نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها المثير، وكان أبوه نازلاً بواسط، وكان خيراً. وكان الهيثم يتعرض لمعرفة أصول الناس ونقل أخبارهم، فأورد معايبهم وحسناتهم، ونقل عنه أنه ذكر العباس بن عبد المطلب ﷺ بشيء، فحبس لذلك عدة سنين، ويقال إنه نقل زوراً، ولبسوا عليه ما لم يقل، وكان قد صاهر قوماً فلم يرضوه، فأذاعوا ذلك عنه، وحرفوا الكلام. وكان يرى رأى الخوارج.

وله من الكتب المصنفة كتاب " المثالب "، وكتاب " المعمرين "، وكتاب " بيوتات العرب "، وكتاب " هبوط آدم عليه السلام "، و" افتراق العرب ونزول منازلها، وكتاب " نزول العرب بخراسان والسواد "، وكتاب " نسب طى "، وكتاب " مديح أهل الشام "، وكتاب " تاريخ العجم وبنى أمية "، وكتاب " الوفود

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ٢٥.

(٢) للمزيد راجع : الخطيب : تأريخ بغداد ١٤/ ٥٢، ابن معين : التأريخ، وانظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٩/ ٨٥.

"، وكتاب " خطط الكوفة "، وكتاب " ولاة الكوفة "، وكتاب " تاريخ الأشراف الكبير "، وكتاب " تاريخ الأشراف الصغير "، وكتاب " طبقات الفقهاء والمحدثين "، وكتاب " كنى الأشراف "، وكتاب " خواتيم الخلفاء "، وكتاب " قضاة الكوفة والبصرة "، وكتاب " المواسم "، وكتاب " الخوارج "، وكتاب " النوادر "، وكتاب " التاريخ على السنين "، وكتاب " أخبار الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ووفاته" وكتاب " أخبار الفرس "، وكتاب " عمال الشرط لأمراء العراق " وغير ذلك من التصانيف. واختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد وروى عنهم.

وكان ممن كثُرت تصانيفه وتعددت كتبه، وقد ذكر له ابن النديم ما ينيف على خمسين كتاباً فى السير والأخبار والمناقب والمثالب ومواضيع تاريخية مختلفة، منها : تاريخ الأشراف الكبير، وتاريخ الأشراف الصغير، وطبقات الفقهاء والمحدثين، وكتاب التاريخ مرتب على السنين. وكانت كتبه من أهم المصادر التى استفاد منها المؤرخون الذين جاءوا بعده[1].

وهناك موسى بن عقبة : (ت ١٤١ هـ / ٧٥٨ م)[1] : التابعى الجليل مولى آل الزبير بن العوام، كان بصيراً بالمغازى النبوية، ألّفها فى مجلد، فكان أول من صنّف فى ذلك.

حدث من صحف ابن عباس التى أودعها إياه كُرَيْب مولى ابن عباس. وأحاديثه فى الكتب الستة، قال عنه ابن حجر: ثقة فقيه إمام فى المغازى.

كان مالك إذا قيل له : مغازى من نكتب ؟ قال : عليكم بمغازى موسى بن عقبة، فإنه ثقة، ويبدو أن ((مغازى موسى بن عقبة)) كان موجوداً إلى القرن الثامن، وقد ذكر الذهبى أنه قرأه فقال : مغازى موسى بن عقبة فى مجلد ليس بالكبير،

---

(١) أحمد عبد الباقى : معالم الحضارة العربية فى القرن الثالث الهجرى. مركز دراسات الوحدة العربية ط ١، بيروت ١٩٩١ م، ص ٣٧١.

(٢) انظر ترجمته فى: طبقات خليفة ص٢٦٧، تاريخ البخارى ٧/ ٢٩٢.

سمعناها، وغالبها صحيح، ومرسل جيد. ولم تصلنا نسخة كاملة من أصل الكتاب، وإنما وصلنا قطعة من تهذيب ابن قاضى شهبه (٧٨٩هـ) واختصر الكتاب ابن عبد البر (٤٦٣هـ) فى كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وكذا اقتبس منه ابن سيد الناس نصوصاً فى كتابه : عيون الأثر.

وقد اتبع أسلوب مدرسة المدينة فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدى اهتماماً خاصاً بذكر تواريخ الحوادث. وقد استفاد من مواد مكتوبة (وبخاصة من آثار أستاذه الزهرى) إضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية، ولكن الاعتماد فى الروايات المكتوبة بقى على الراوى لا الكتاب. وقد استند موسى بن عقبة بالدرجة الأولى إلى الزهرى، وأضاف إلى ذلك بحوثه الخاصة، وبذلك أضاف مادة إلى تراث المدرسة. ولكنا نبين أن تقدير إنتاجه يتطلب دراسة تفصيلية دقيقة لكل المقتبسات المأخوذة عنه التى ترد فى ابن إسحق والواقدى والطبرى وابن سيد الناس وابن كثير[١].

ثم جاء كتاب الزهري[٢] (مغازى الرسول) وقد ولد أبى بكر بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب عام ٥١هـ، وقد أخذ عن أعلام المحدثين الذين يقول عنهم أنهم بحور العلم، ويذكر أنه قام بجمع واسع فى المدينة عن أحاديث الرسول ﷺ والصحابة، ساعده فى ذلك مكانته الاجتماعية، وذاكرتها القوية.

ويُعتبر الزهرى فى الواقع مع آخرين من جيله، المؤسسين لعلم التاريخ عند العرب المسلمين[٣]، واشتهر الزهرى كمحدث وفقيه بالإضافة إلى كونه مؤرخًا.

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٤.

(٢) الزهرى (٥٨ – ١٢٤ هـ) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب. من بنى زهرة، من قريش. تابعى من كبار الحفاظ والفقهاء مدنى سكن الشام. هو اول من دون الأحاديث النبوية. ودون معها فقه الصحابة. قال أبو داود : جميع حديث الزهري(٢٢٠٠) حديث. أخذ عن بعض الصحابة. وأخذ عنه مالك بن أنس وطبقته. [تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥ ـ ٤٥١؛ وتذكرة الحفاظ ١/ ١٠٢ ؛ والوفيات ١/ ٤٥١ ؛ والأعلام للزركلى ٧/ ٣١٧].

(٣) ابراهيم بيضون : مسائل المنهج فى الكتابة التاريخية العربية. مجلة الفكر العربى، عدد٥٨، اكتوبر ١٩٨٩ م، ص ١٠.

ونجد إن الزهرى قد وضع إطارا واضحا للسيرة النبوية، وقد راعى بصورة عامة التسلسل التاريخى للحوادث، و ذكر بعض التواريخ مثل تاريخ الهجر ة و تواريخ بعض الغزوات. وهو يهتم إلى حد كبير بالإسناد، وأسلوبه يتصف بالصراحة والبساطة و التركيز، و قلما يلجأ للمبالغة، ويورد الزهرى أحيانا بعض الأشعار المتعلقة بالأخبار التى ذكرها.

وقد روى عن الزهرى جماعة من العلماء الأئمة الأعلام، يأتى فى مقدمتهم فقيه المدينة وعالمها الأشهر ـ الذى قيل عنه لا يفتى ومالك فى المدينة ـ مالك بن أنس الأصبحى، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثورى، وقد ذاع صيت الزهرى، وأصبحت له مكانة علمية رفيعة فى أوساط العلماء، فقد سئل مكحول الدمشقى، من أعلم من رأيت ؟ فقال : ابن شهاب، قيل له ثم من ؟ قال : ابن شهاب، قيل له ثم من ؟ قال : ابن شهاب كان قد حفظ علم الفقهاء السبعة ـ يقصد فقهاء المدينة المشهورين ـ وكتب عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة ـ إلى سائر الأقاليم : عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه، فعمر بن عبدالعزيز ـ وهو من هو ـ لا يقول مثل ذلك الكلام عن ابن شهاب إلا إذا كان الرجل فعلاً يستحق هذا الثناء من الخليفة العالم، بما بلغ من مكانة علمية، والحق أن ابن شهاب كان موضع احترام وإجلال خلفاء بنى أمية، لأنه إلى جانب تبحره فى العلوم، كان يحترم نفسه، ولم يداهن فى الحق [1].

وكان اهتمام الزهرى بالكتابة والتدوين هو الذى مكنه من نشر علمه، وبوأه تلك المكانة العلمية الرفيعة التى حظى بها فى أوساط العلماء، وفلا بلاط الخلفاء ومجالسهم، وكان هو شديد الفخر بذلك، وروى عنه أنه كان يقول : ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى، ولا بذله بذلى " ولقد ضاع ما كتبه ودونه الزهرى بنفسه، ولم يصل إلينا كما هو. ولولا ما بقى لنا من علمه مما رواه تلامذته ـ وبصفة

(١) عبد الشافى محمد عبد اللطيف : أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ٢٠٠٥ م، ص٣١.

خاصة أشهرهم وأنبغهم محمد بن إسحاق ـ لكانت خسارتنا فادحة، فإلى ابن إسحاق يرجع الفضل الأكبر فى حفظ علم أستاذه الزهرى، فهو الذى أوصله إلينا، لأنه كانت تربطه بأستاذه علاقة متينة قائمة على الحب والاحترام، ومما دل على قوة تلك العلاقة ومتانتها، ورفعة مكانة ابن إسحاق عند أستاذه وثقته فيه، أنه كان يعتبر مرجعه الأول فى كل ما يتعلق بسيرة الرسول ﷺ مما يحصل عليه من معلومات من طرق أخرى ليتثبت من صحتها. فعندما زار ابن إسحاق مصر والتقى بعالمها الكبير يزيد بن أبى حبيب، وروى عنه العلم، أرسل إلى أستاذه الزهرى، ليتثبت من صحة بعض الروايات وذلك من أمثال القصة التالية فقد قال ابن إسحاق نفسه : " حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى، أنه وجد كتابا فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان، وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم، قال ـ ابن إسحاق ـ فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهرى، ليتثبت من صحة بعض الروايات وذلك من أمثال القصة التالية فقد قال ابن إسحاق نفسه : " حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى، أنه وجد كتابا فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان، وملوك العرب والعجم، وما قاله لأصحابه حين بعثهم، قال ـ ابن إسحاق ـ فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهرى فعرفه : " واسم الزهرى هو الأشهر والأكثر ذكراً فى سيرة ابن إسحاق، وكثيراً ما يعبر فيما يتعلق بروايته عن الزهرى، بقوله : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، وأحياناً يقول : حدثنى الزهرى فقط، أو حدثنى ابن شهاب، أو سألت ابن شهاب الزهرى، إلى غير ذلك من التعابير[1].

وكان الزهرى المدرسة التى تخرج فيها نخبة ممتازة من التلاميذ منهم موسى بن عقبة الذى كان مولى لآل الزبير، والذى اشتهر بكتابة المغازى حيث ألف كتابا رواه عنه ابن أخيه ويدعى إسماعيل بن إبراهيم المتوفى سنة ١٥٨ هـ وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل إلينا سوى قطع صغيرة منه، حفظت فى كتب المؤرخين اللاحقين

(١) عبد الشافى محمد عبد اللطيف : أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ٢٠٠٥ م، ص٢١.

وخاصة ابن سعد والطبرى وتحتوى على قوائم المهاجرين إلى الحبشة والمشتركين فى بيعة العقبة والمحاربين فى بدر، كما عنى موسى بن عقبة بتاريخ الخلفاء الراشدين وبعض خلفاء بنى أمية فضلاً عن تاريخ العصر الجاهلى. واعتمد على مدونات الرعيل الأول من الكتاب أمثال ابن عباس وكذلك على الوثائق المكتوبة واقتبس بعض الأشعار وحاول ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً، وقد توفى موسى بن عقبة سنة ١٤١ هـ[١].

وهناك العلامة الحافظ الإخبارى محمد بن إسحاق[٢] بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان ـ المطلبى بالولاء، المدينى، نسبة إلى مدينة الرسول ﷺ وكان يكنى بأبى بكر، وقيل بأبى عبدالله، وكان جده يسار من أهل قرية عين التمر بالعراق، وقد وقع فى أسر المسلمين عندما فتح خالد بن الوليد ﷺ عين التمر فيما فتح من أرض العراق سنة ١٢ هـ فى خلافة أبى بكر الصديق ﷺ ١١ – ١٣ هـ وأرسل يسار بن خيار مع غيره من الأسرى إلى المدينة المنورة ـ عاصمة الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت. ولا يعرف على وجه اليقين ما إذا كانت أسرته عربية أم أعجمية، وإن كان ليس بعيداً أن تكون عربية مسيحية، وصار ولاء يسار إلى قيس بن مخرمة ابن المطلَّب، وقد أسلم فأعتقه مولاه، ومن ثم نسب إليهم فلقب بالمطلبى[٣].

وهو صاحب السيرة النبوية، قال ابن سعد : كان ابن إسحاق أول من جمع مغازى رسول الله ﷺ (ولعله يقصد على وجه الاستقصاء) وإلا فقد سبقه عروة وموسى بن عقبة، روى البخارى لابن إسحق تعليقاً، وروى له مسلم، وأصحاب السنن الأربعة، قال عنه الحافظ فى التهذيب: إمام بالمغازى، صدوق يدلس.

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. د. ت، ص ٢٧.

(٢) انظر ترجمته فى : المعرفة والتاريخ ٢/ ٢٧، الجرح والتعديل ٧/ ١٩١، عفت محمد الشرقاوى : أدب التاريخ عند العرب ١ / ٢٥٦، هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام، ترجمة احسان عباس

(٣) عبد الشافى محمد عبد اللطيف : أوائل المؤلفين فى السيرة النبوية. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ٢٠٠٥ م، ص٤٢.

وقال ابن عدى : وقد فتشت أحاديثه كثيراً، فلم أجد من أحاديثه ما يتهيأ أن يُقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ، أو يهم بالشيء بعد الشيء.

وإنما أخذ عليه المحدثون أمرين :

١ - أنه كان يحدث عن الجماعة بالحديث الواحد ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا.

٢- والأمر الثانى ذَكَره يحيى القطان فأشار إلى ما فى سيرة ابن إسحاق من الواهى من الشعر ومن بعض الآثار المنقطعة المنكرة فلو حذف منها ذلك لحسنت، وثمّ أحاديثه جمة فى الصحاح والمسانيد مما يتعلق بالمغازى ينبغى أن تضم إليها وترتب.

وقد فعل غالب هذا الإمام البيهقى (٤٥٨هـ) فى كتابه دلائل النبوة، فكان بحق جامعاً للسيرة والمغازى وفق منهج المحدثين وأهل السير.

وفى منتصف القرن الثانى الهجرى بدأت تظهر الكتب الجامعة كالموطآت، ثم تلتها الصحاح والسنن والمصنفات، وهى التى استوعبت معظم أحاديث رسول الله ﷺ، فضمت أبواباً كاملة عن مغازى رسول الله ﷺ، لكن انتقى كل إمام من المصنفين ما ناسب شرطه فى التأليف، ولن أدخل فى تفاصيل شروطهم فهذا يحتاج إلى وقفات طويلة.

وقد وصلت إلينا من ابن اسحق (ت ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكليتها. ويحتمل أن خطته الأصلية للسيرة كانت تتألف من ثلاثة أقسام "المبتدأ" أو تاريخ الفترة بين التكوين ومبعث الرسول ﷺ و"المبعث" أو رسالة النبى محمد ﷺ والمغازى أو غزوات الرسول وسراياه، ولكنى أرى أن الكتاب نفسه يتألف من قسمين متميزين، المبتدأ والمغازى، ولذا كان جائزاً روايتهما معاً أو كلاً على انفراد[١].

---

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

ذهب ابن إسحق أبعد من حدود مدرسة المدينة، سواء أكان ذلك فى نظرته التاريخية أم فى أسلوبه. فقد جمع بين أساليب المحدّثين والقصاص فى كتاباته، واستفاد من نواحى الاهتمام المختلفة بالمغازى وتواريخ الأنبياء، فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية والإسرائيليات والقصص الشعبى مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع. ولذا فإن مصادر معلوماته تكوّن خليطاً يجلب الانتباه. ففى "المبتدأ " روى ابن إسحق عن " أهل الكتاب "، وعن الداخلين حديثاً فى الإسلام، وأخذ كثيراً عن وهب بن منبه، وعن العجم، وروى قصصاً عربية قديمة، وأقاصيص من أصل يمانى. أما رواياته عن فترة الرسالة فترجع فى جوهرها إلى أساتذته فى المدينة، مع إضافات حصل عليها ببحوثه. وفى بعض الحالات لا تتعدى رواياته أن تكون شرحاً لآيات قرآنية، نقله عن غيره أو عمله هو. ولكن نلاحظ أن معلوماته عن الفترة المكية وردت فى الغالب دون إسناد،وكثيراً ما نجد كلمة "قصة " عنواناً لأخباره، مما يشير إلى أثر القصص، ومع أن رواياته عن العصر المدنى فيها طابع جدى أقوى وعناية أوضح بالإسناد، إلا أننا نجد مع هذا أثر القصص الشعبى كما نجد أثر التقوى فى المبالغة.ويرد الشعر خلال أخباره أو فى نهاية الكلام عن الحادث بشكل مجموع، وهذا يظهر بوضوح جمعه بين أسلوب القصّاص وأسلوب المحدّثين. وهذا الشعر، بنوعيه الموضوع والصحيح، يلقى ضوءاً على التيارات السياسية المعاصرة كالمنافسة بين الأنصار وقريش[1].

ويُنتقد ابن إسحق لاعتماده على أهل الكتاب فى الرواية، ولإيراده كثيراً من الشعر الموضوع، ولأخطائه فى الأنساب، ولأنه لا يمحّص مصادره، ولأنه ينقل من كتب الآخرين مباشرة (أى دون سماعها عن أصحابها). ومع ذلك فإن ابن إسحق يبدى شكاً ببعض رواياته ويستعين أحياناً بالآيات القرآنية ليعزز رواياته. أما فى الشعر فلم يكن متيناً، ويعترف بضعفه. أما فى الإسناد فلم يكن دقيقاً كما يتطلّب أهل الحديث، ولكنه تقدّم بطريقة الإسناد الجمعى بكفاءة واستطاع أن يقدم قصة

(١) عبد العزيز الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب. مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥، ص ٢٦.

جذابة من رواياته وقد استفاد ابن إسحق من الوثائق والمواد المكتوبة والروايات والأخبار الشفوية[1].

ويظهر أثر التيارات السياسية – الفكرية فى التهمة الموجهة إلى ابن إسحق فى أنه ذو ميول شيعية، وهى تهمة لا تخلو من أساس. ويوصف بأنه قدرى ـ يؤمن بحرية الإرادة –وربما كان ضد الأمويين، ولكن هذا يتطلب الأدلة لإثباته.

وقد انتقدت سيرة ابن إسحق فى المدينة، ولكنها لقيت عناية فى المشرق، ويبدو أنها بأسلوبها ومادتها ناسبت الاتجاهات الثقافية هناك. وقد وصلت إلينا منقحة من قبل ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨١٣ م)، الذى أخذها برواية البكائى وهى بنظر السخاوى أوثق من رواية يونس بن بكر الشيبانى. وقد حاول ابن هشام فى تهذيبه أن يحذف الأقسام الضعيفة فى " المبتدأ " خاصة، وأن يطرح الشعر الموضوع، وأن يجعلها أقرب إلى وجهة نظر المحدثين. ويظهر أن المؤرخين عامة ينظرون إلى سيرة ابن إسحق – بعد أن نقحها ابن هشام خاصة – نظرة حسنة[2].

وينسب إلى ابن إسحق كتاب آخر هو تاريخ الخلفاء،ولم يصل إلينا منه إلا مقتطفات مبعثرة، ويبدو أنه تناول تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين.

لقد استفاد ابن إسحق من وجهات أسلافه، وأضاف إليها، فهو فى " المبتدأ " يبدو متأثراً فى خطته بوهب بن منبه، وربما كان هذا سبب وجود قسم خاص باليمن فيه. ومع أن تأليفه منفصل بعضها عن بعض إلا أنها بمجموعة تعبّر عن فكرة تاريخية هى كتابة تاريخ عالمى (من المبتدأ والمغازى وتاريخ الخلفاء) [3].

ثم ظهرت كتب السيرة النبوية بعد ذلك بقليل، وأقدم ما وصلنا منها السيرة

---

(١) نفسه، ص ٢٦.
(٢) نفسه، ص ٢٧.
(٣) نفسه، ص ٢٧.

لابن هشام[1] وهى مختصرٌ لسيرة ابن إسحاق (المتوفى ١٥١ هجرية) وهو الكتاب الذى اعتنى مؤلِّفه بجمع الأخبار من مظانها المختلفة، وارتحل فى سبيل ذلك إلى عدة بلاد، ساعياً للإحاطة بكافة التفاصيل والأخبار.

وقد تناول ابن هشام هذه الرواية التى وقعت له من سيرة ابن إسحاق، بكثير من التحرير والاختصار والإضافة، والنقد أحياناً، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء[2].

ثم تداول الناس قديماً وحديثاً سيرة ابن هشام، حتى كادوا ينسون واضعها الأول. يقول ابن خلكان : "وهذا ابن هشام هو الذى جمع سيرة رسول الله ﷺ من المغازى والسير لابن إسحاق، وهذبها ولخصها.. وهى الموجودة بأيدى الناس، المعروفة بسيرة ابن هشام.

أما أبى مخنف[3] (١٥٧هـ/ ٧٧٤م) فهو إخبارى كوفى له اهتمام بالأنساب. ويعتبر أحد أعمدة المدرسة الكوفية (العراقية) التى ترعرعت تحت راية المعارضة، واتخذت سمة أكثر حركية من مدرسة المدينة المحافظة، حيث سمى أصحابها بأهل الرأى، مقابل أهل الحديث [4] وقد كتب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق،و الشورى، وصفين. وعن الحوادث التالية فى العراق حتى نهاية العصر الأموى وخاصة

---

(١) ابن هشام : هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المصرى (٢١٨هـ). وأصل هذه السيرة هو ما وضعه أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار المدنى القرشى (١٥٢هـ). وقد رواها ابن هشام عن أبى محمد زياد ابن عبد الله البكائى العامرى الكوفى (١٨٣هـ)، عن ابن إسحاق، وفى خزانة القرويين أيضاً نسخة من سيرة ابن هشام، بقلم أندلسى نفيس، كتبت سنة (٧١٩هـ)، وبحواشيها معارضات وتقييدات قيمة. والجزء الثالث من نسخة أخرى، بقلم أندلسى عتيق، على رق غزل. وصور ذلك كله فى معهد المخطوطات بالقاهرة.

(٢) عبد السلام هارون : مقدمة تهذيب سيرة ابن هشام. ص١١.

(٣) للمزيد راجع : ابن حجر : لسان الميزان ٤/ ٤٩٢، ابن عدى : الكامل فى ضعفاء الرجال ٦/ ٩٣، العقيلى : الضعفاء ٤/ ١٨.

(٤) ابراهيم بيضون : مسائل المنهج فى الكتابة التاريخية العربية. مجلة الفكر العربى، عدد٥٨، اكتوبر ١٩٨٩ م، ص ١١.

الثورات والمعارك وعن الخوارج. قد أدخل الطبرى فى كتابه كثيراً من رواياته[1]. وكان أكثر من غيره معرفة بأمور العراق، كما كان المدائنى بشئون خراسان والهند وفارس والواقدى بالحجاز[2]

وقد تعامل أبو مخنف مع الإسناد بشئ من التسامح. واستعمل الروايات العائلية فى صفين، واعتمد بكثرة على روايات قبيلة الأزد.

كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى _فمثلا يأخذ عن الشعبى ويورد عادة الصورة الكوفية للحوادث. فهو أميل للعراق تجاه الشام.

ونرى فى كتابة أبى مخنف تسلسلا متصلا، ولكن التماسك ضعيف فى بعض الأحيان. وهى تقدم أحيانا صورة حيه للحوادث مع كثير من المحاورات، ويتخللها الشعر فى بعض المناسبات. وهكذا نجده يعكس أثر مجالس السمر و شيئا من وجهة قصص الأيام فى أسلوبه.

استعمل أبو مخنف الإسناد بشئ من التسامح. واستعمل الروايات العائلية عن صفين خاصة، واعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد. كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى – فمثلاً يأخذ عن الشعبى، وعن رواة من قبائل أخرى، كتميم وهمدان وطئ وكندة. ثم إنه أتمها بروايات من المدينة. ونلاحظ أن سلاسل رواياته كثيرة، وتتبدل بتبدل الحوادث، وهذا طبيعى فى أخبارى من الأولين[3].

ويورد أبو مخنف عادة الصورة العراقية (الكوفية) للحوادث. فهو أميل للعراق تجاه الشام، نتيجة اعتزاز القبائل بمصرها، كما أنه أميل للعلويين تجاه الأمويين. كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحياناً فى رواياته، ولكن أخباره على العموم ليست متحزبة[4].

---

(١) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٨٢.

(٢) نفسه، ص ٨٢.

(٣) الدورى : مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) الدورى : مرجع سابق، ص ٣١.

ونرى فى كتابة أبى مخنف تسلسلاً متصلاً، ولكن التماسك ضعيف فى بعض الأحيان. وهى تقدم أحياناً صورة أخاذة حية للحوادث مع كثير من الخطب والمحاورات، ويتخللها الشعر فى بعض المناسبات. وهكذا نجده يعكس أثر مجالس السمر، وشيئاً من وجهة قصص " الأيام " فى أسلوبه[١].

وهناك محمد بن السائب الكلبي[٢] (ت١٤٦هـ/ ٧٦٣م) وقام محمد بن السائب الكلبى بدراسات فى الأنساب واللغة والتاريخ .وتشير دراساته للأنساب إلى محاولة لجمع الروايات القبلية. كما أدى على أفضل نسابه فى كل قبيلة.وبالإضافة إلى ذلك فإنه رجع لشعر النقائض المتعلقة بالفرزدق على الشاعر نفسه.

وهناك عوانة بن الحكم (ت١٤٧هـ/ ٧٦٤م) وكان من أصل متواضع إذ كان أبوه عبدا خياطا وأمه أمة سوداء، ولكن استقى من معارف علماء الجيل التالى، وكان من علماء الفتوح خاصة، مع علم بالشعر[٣] وهو صاحب "سيرة معاوية وبنى أميه":

هو إخبارى متبحر فى الشعر والأنساب، وتناول مؤلفه "كتاب التاريخ الإسلامى " القرن الأول الهجرى.

قال الذهبى: العلاّمة الإخبارى، الكوفى الضرير أحد الفصحاء له كتاب التأريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية وغير ذلك، وكان صدوقاً فى نقله.

وقال ابن حجر: "أخبارى مشهور كوفى، كثير الرواية عن التابعين، قلّ أن روى حديثاً مسنداً، وأورد عن عبدالله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنـزى - وهو من تلاميذ ابن معين - أى كان عثمانياً. فكان يضع الأخبار لبنى أمية[٤].

---

(١) الدورى : مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) للمزيد راجع : ابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٩/ ٣٥١ والبخارى : التأريخ الكبير ٢/ ٣٢٤ والمزى : تهذيب الكمال ٣٣/ ١٧٧ والذهبى : الكاشف ٢/ ٤١٥ وابن حجر : تهذيب التهذيب ٢/ ١٦٨، ١٢/ ٥٤ وتقريب التهذيب ١/ ١٥٢.

(٣) مرجوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠١، ص ٨٣.

(٤) للمزيد راجع : الذهبى سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠١ وياقوت : معجم الأدباء٦/ ١٣٤ - ١٣٩ وابن حجر : لسان الميزان ٤/ ٣٨٦،٣٨ وسير أعلام النبلاء ١١/ ٩٢.

وكتب عن الخلفاء الراشدين والردة والفتوحات، والصراع بين الإمام على وخصومه، وتناول الحسن وشئون العراق والشام حتى نهاية فترة عبد الملك بن مروان. وتدل رواياته على معرفة داخليه بشئون الأمويين، ويقدم عوان على الأكثر الرواية الأموية للحوادث مقابل الرواية العراقية، ثم إن خطته فى التسلسل التاريخى أو على سير الخلفاء تمثل خطوة لها دلاله فى التطور التاريخى.

حيث تدل رواياته على معرفة داخلية بشؤون الأمويين. ولعله أخذ معلوماته هذه من قبيلة كلب الموالية للأمويين، وبخاصة أنه يفخر بعلمها. ويقدم عوانة على الأكثر الرواية الأموية للحوادث مقابل الرواية العراقية، وهذا يوضح ما يبدو من نبرة أموية فى بعض رواياته، حتى إن تأكيد الأمويين على فكرة الجبر فى تفسير الحوادث ينعكس فى رواياته، ومع ذلك يورد أحياناً الروايات العراقية والمدنية التى تعكس آراء جماعات مضادة للأمويين، ولذا يمكن القول إن عوانة لم يكن متحيزاً لجهة خاصة[1].

وهناك سيف بن عمر (ت١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) صاحب " كتاب الردة " و"كتاب الفتوحات ":

ويتناول سيف بن عمر الكوفى إخبار الردة وأسبابها وكذلك الفتوحات، ويتناول كتابه الثانى الفتنه وخاصة واقعه الجمل ويقدم سيف بن عمر فى الأساس النظرة العراقية، ويستفيد بالدرجة الأولى من روايات قبيلته تميم. وأخباره عن الفتوحات وخاصة فتح العراق تميميه الميول وتتجه لأن تكون عاطفية على أسلوب الأيام.

وهو إخبارى اتهمه أئمة النقد بالوضع فى الأخبار، ومن ثم تركوا مروياته[2]، ومع ذلك فإن النقول عنه فى أخبار الردة والفتوح كثيرة، ولم يتعرض لأخبار السيرة النبوية إلا نادراً، ولم يرو أحاديث نبوية إلا نادراً. وله حديث منكر وخبر يتعلق

---

(١) الدورى : مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ٣/ ٣٥٢-٣٥٣، والمزى : تهذيب الكمال ٣٢٥ - ٣٢٧.

بالسيرة النبوية[1]،وقد إستقرأ ابن عدى مروياته وقال: "بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكرة[2]لم يتابع عليها، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق".

ويعد الواقدى أعلى منزلة من المدائنى والكلبى، ويقال أنه سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى، وكان حجة فى الحديث والفقه شأنه شأن الطبرى، وقد ولاه الرشيد القضاء بشرقى بغداد، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي[3].

أما كتاب المغازى للواقدى) أبو عبد الله محمد بن عمر ٢٠٧هـ)؛ فهو يحتل مكانةً خاصة فى تاريخ التأريخ العربى الإسلامى، باعتباره من أبرز الأعمال المدوَّنة فى القرن الثانى الهجرى.

وكتاب المغازى هذا يقتصر على الفترة المدنية و يتمشى بدقة أكثر من ابن اسحق مع مدرسة المدينة فى المادة و الأسلوب. فهو منتظم ومنطقى فى تناول مادته. إذ يعرض أولا الإطار الموضوعى ثم يعقبه بذكر التفاصيل؛ و يبدأ بقائمة لمصادره الأساسية وبقائمة بمغازى الرسول و تواريخها، وحين يذكر الغزوات التى قادها الرسول يورد أسماء أمراء المدينة فى غيابه، ثم يتناول تواريخ الغزوات واحدة بعد الأخرى حسب تسلسلها التاريخى ويبدى اهتماما خاصا بالتواريخ.

وهناك نصر بن مزاحم[4] (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) وهو كوفى أول أخبارى شيعى ونجد إن كتبه تهم الشيعة ("الجمل"، "صفين"، "مقتل الحسين"، "أخبار المختار"، "المناقب"، "مناقب الأئمة":

جمع نصر بن مزاحم كتابه" صفين" من المقتبسات الموجودة ويمكننا فحصه للحصول على فكرة تقريبية. ففى " صفين" نلاحظ أن ميول نصر بن مزاحم عراقية

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٣٥٣.

(٢) المزى : تهذيب الكمال ٣٢٦.

(٣) مرجوليوث : مرجع سابق ص ٩١.

(٤) للمزيد راجع : الذهبى: ميزان الاعتدال ٧/ ٢٤ والمغنى ٢/ ٦٩٦ وابن أبى حاتم : الجرح والتعديل ٨/ ٤٦٨ والعقيلى : الضعفاء الكبير ٤/ ٣٠٠ والدار قطنى : الضعفاء والمتروكين ٣/ ١٦٠.

علوية. فهو يورد الحديث ضد معاوية وحزبه، ويورد الأحاديث و الأخبار وحتى القصص ليساند قضية الإمام على. ومع ذلك فإنه حين يتناول مسالب معاوية لا يخفى بعض النقد الموجه للحزب العلوى من خصومه. ويعطينا نصر الأسباب التى أدت إلى صفين وانتهت بالتحكيم ويكثر من الشعر و الحوار و الخطب خلال رواياته. ويلاحظ أن العناية بالتواريخ ضعيف، كما أن الإسناد يستعمل بكثير من التساهل. أم أسلوب الكتابة فهو مثل واضح لأسلوب قصص الأيام،وهو يعكس مجالس السمر، و ينتهى بقائمة بأسماء أنصار الإمام على البارزين الذين استشهدوا فى صفين.

يعطينا نصر قصة تنبض بالحياة والحيوية للحوادث التى أدت إلى صفين، وانتهت بالتحكيم، ويكثر من الشعر والحوار والخطب خلال رواياته، فترى كل الشخصيات البارزة تقول الشعر (من نظمها أو اقتباساً)، وتورده حتى فى المراسلات، وكثير من هذا الشعر موضوع. والكتاب شبه قصصى، فهو مجموعة من الأخبار المتتالية، وفيه شئ من التخلخل فى الحبك. ويجلب الانتباه أن معاوية يظهر فى الكتاب كشيخ قبيلة، حتى إن بعض الأقوال التى قالها أبو سفيان فى مكة ترد على لسانه هنا. ويلاحظ أن العناية بالتواريخ ضعيفة، كما أن الإسناد يستعمل بكثير من التساهل. أما أسلوب الكتابة فهو مثل واضح لأسلوب قصص " الأيام " وهو يعكس مجالس السمر، وينتهى بقائمة بأسماء أنصار الإمام على البارزين الذين استشهدوا فى صفين (وفق طريقة قصص الأيام). وأخيراً نبين أن إمكان إعادة جمع الكتاب – من مقتطفات الطبرى وابن أبى الحديد بالدرجة الأولى – تدل على قيمته بنظر المؤرخين[1].

وهناك المدائنى[2] صاحب "أخبار الخلفاء الكبير" والمدائنى بصرى، ثم صار إلى المدائن، التى نسب إليها، ثم صار إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن مات[3]، وكان من

(١) الدورى : مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) للمزيد راجع الذهبى: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٠٠ والمغنى فى الضعفاء ٢/ ٤٥٤. وابن حجر : لسان الميزان ٤/ ٢٥٣.

(٣) مرجوليوث : مرجع سابق، ص ٨٥.

ثقات الرواة والإخباريين ويعتبر أشهر الرواة وأوثقهم معرفة بشعر العرب وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم، وبسيرة النبى ﷺ وبأخبار الغزوات والفتوح وبخاصة فتوح بلاد فارس والهند[1]. ويظهر أثر الإسناد عليه أقوى ممن سبق نتيجة للتطورات الثقافية، ويظهر عنده الاتجاه نحو جمع أوسع وتنظيم أو فى للروايات التاريخية، فنراه يأخذ من الأخبار بين السابقين مثل أبى مخنف وابن اسحق و الواقدى، ويبدو أنه قد جمع فى كتابه هذا بين الدراسات التاريخية والأدبية،ونجد أنه يتناول الفترة من خلافة أبى بكر حتى المعتصم وقد كتب بأسلوب الإخباريين، واتبع أسلوب المحدثين فى نقد الروايات ثم أنه تنوع أكثر ممن سبقه فى الأخذ من روايات البصرة، خاصة عن الخوارج وعن مدينة البصرة وعن فتوح خراسان وما وراء النهر. وقد جاء المدائنى بأخبار أوفى و أكثر توازنا ممن لف عن الحوادث و الموضوعات التى تناولها.

وللمدائنى عدد كبير من المصنفات، ذكر ابن النديم منها ما ينيف على مئتى كتاب فى مختلف البحوث والمواضيع التاريخية، وقد صنفها بحسب مواضيعها، فى أخبار النبى ﷺ وأخبار قريش، وأخبار الخلفاء، وفى الأحداث، وفى الفتوح، وفى أخبار العرب، وفى أخبار الشعراء الخ [2]

وهناك هشام بن محمد الكلبى صاحب (جمهرة الأنساب) وقد كان من الطبقة الأولى فى الأنساب[3]

وتناول فى دراساته تاريخ الأنبياء،والجزيرة العربية قبل الإسلام،وأيام العرب،والتاريخ الإيرانى،والتاريخ الإسلامى، ومصادر أخباره مختلفة.

ففى تاريخ الأنبياء يأخذ عن أهل الكتاب،وفى تاريخ إيران يأخذ من الترجمات الفارسية، وبالإضافة إلى ذلك فهو يتحدث عن تاريخ اليمن ولكنه لم يكن مدققًا ولم

---

(١) أحمد عبد الباقى : معالم الحضارة العربية فى القرن الثالث الهجرى. مركز دراسات الوحدة العربية ط ١، بيروت ١٩٩١ م، ص ٣٧٢.

(٢) نفسه، ص ٣٧٢.

(٣) مرجوليوث : دراسات، مرجع سابق، ص ٩٠.

يتخلص من المواد الأسطورية، ومن بعض الأخبار الموضوعة عن شعراء الجاهلين.

وهناك مصعب الزبيرى (ت ٢٣٣-٢٣٦هـ/ ٨٤٧-٨٥٠م) وهو من سلالة ابن الزبير وكان مصعب عالما بالأنساب وكتب كتابين " النسب الكبير " "و نسب قريش"، ويعتبر كتاب نسب قريش هو أفضل من كتب عن نسب قريش. وتدل خطة الكتاب على أنه اتبع إطارا ثابتا للكتابة، وهو يشير فى كتابه إلى الزهرى وإلى والده وإلى أهل النسب، وأحيانا إلى بعض الرواة، ويلقى الكتاب الضوء على التحولات فى الروابط القبلية وعلى التبديلات فى خطوط الأُنساب، ويعطى الزبيرى إضافة إلى سلسلة الأنساب، بعضها مفصل وهام، وعن بعض الشخصيات الهامة من العصر الجاهلى حتى زمنه، ويورد الشعر،وخاصة فى الفترة الأولى للاستشهاد أو التأييد.

وهناك أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى:" كتاب فتوح البلدان "،" أنساب الإشراف":

وكتاب فتوح البلدان يبحث تاريخ الفتوحات الإسلامية ويقدم قصة متسلسة لفتح كل مصر. وقد عمل على إعطاء صورة متزنة للحوادث، وطريقته فى الكتابة هى فى انتقاء المادة بعد الغربلة والنقد، وهو يعتمد كثيرا على روايات المدينة التى تتصف بالحياد والدقة أكتر من غيرها،كما إنه استفاد من الروايات المحلية. وقد أورد البلاذرى كثيرا من المعلومات القيمة عن النواحى الثقافية والاقتصادية والإدارية.

أما أنساب الأشراف فهو كتاب عام للتاريخ الإسلامى فى إطار الأنساب.وهو يمثل مزيجا فذ فى الخطة والمادة. فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب. وتشمل سيرة كل خليفة الأحداث التى وقعت على عهده بما فى ذلك فعاليات الأحزاب السياسية، وهذا الكتاب يراعى التسلسل التاريخى،ومع ذلك توجد استثناءات فرضتها ضرورة مراعاة تسلسل النسب (مثلا

يرد الكلام عن يزيد قبل عثمان بن عفان). ويظهر أن البلاذرى فى انتقائه لمادته التاريخية أعطى أهميه خاصة للروايات التى تعود للمنطقة التى وقع فيها الحادث وأتمها بروايات أخرى حول الموضوع. ويعبر البلاذرى فى أنساب الأشراف عن فكرة وحدة الأمة واتصال خبراتها فى التاريخ الإسلامى، أما فتوح البلدان فيظهر فيه خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية

وهناك اليعقوبى "كتاب البلدان" نجد أن اليعقوبى يعبر عن فكرة التاريخ العالمى.واليعقوبى مؤرخ من طبقة الكتاب يجمع بين الثقافة و الخبرة العلمى فى الإدارة.و تاريخ اليعقوبى عبارة عن خلاصة وافية للتاريخ العالمى (قبل الإسلام) وللتاريخ الإسلامى حتى سنة ٢٥٩ هـ : فهو يبدأ بالخليقة وتاريخ العرب قبل الإسلام بل يتناول تاريخ أمم أخرى كالرومان.

ويمكن القول أن المادة التى عرضها فى كتابة تعكس امتزاج الثقافات فى المجتمع الإسلامى ونلاحظ أثر اهتمامه بالجغرافية فى كتابة.

ونجد اليعقوبى عندما يتحدث عن التاريخ الإسلامى يتبع أسلوب الانتقاء من الروايات بعد التدقيق وعمل على تمحيص المعلومات التى قرأها من قبل ونلاحظ أن اليعقوبى متزن فى اخباره و أنة بصورة عامة دقيق فيما أورد من معلومات وقد جاء أحياناً معلومات فردية.وهذا لا يمنع من ظهور شيء من اتجاهاته فى التفصيل،فهو فى حديثة عن الراشدين الأمويين يظهر ميول علوية ويسهب فى ذكر أقوال الأئمة وخطبهم ويعطى عند ذكر وفياتهم.وفى حديثة عن العباسيين يظهر شيئا من المجاملة كما أن حديثة عن المهدى العباسى يعكس بصورة هادئة شيئا من دعايات العباسيين فى أن هذا الخليفة مهدى ينشر العدل.

وقد صار اليعقوبى على خطة دراسة التاريخ الإسلامى حسب توالى الخلفاء إلا أنة مع ذالك راعى خطة تسلسل الحوادث على السنين.

وهناك ابن قتيبة " كتاب المعارف " هذا الكتاب هو دائرة تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية ؛ إذ نجد فيه فكرة كتابة تاريخ عالمى يبدأ بالخليقة وينتهى

بالمعتصم.وتظهر فيه وجهة أصحاب الأخبار والأنساب فى كتابة التاريخ ؛كما أنة يتناول أيام العرب بإيجاز ويبدو فيه اهتمام الفقيهة بطريقة الفتح هل هى صلح أم عنوة ؛ واستفاد ابن قتيبة فى كتاب المعارف من مصادر مكتوبة ومن الروايات ومن الروايات الشفوية ؛ولك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادرة.وتتميز مادتة بالحياد والتأكيد على الحقائق.

وهناك الدينورى (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩١ م)، وأبو حنيفة احمد بن داود الحنفى. موسوعى ومؤرخ ورياضى ولغوى عراقى. توفى ٨٩٥ م. نسب إلى موطنه دينور قرب حمدان بالعراق وقد ولد فى عائلة من اصل فارسى واشتهر برصده من مرصد دينور. ولكنه اشتعل بعلوم كثيرة وترك أكثر من عشرين كتابا. وقد ألف فى الحساب (البحث فى حساب الهند) وفى التاريخ (الأخبار الطوال) الذى يولى الحياة الاجتماعية عند الفرس اهتماما خاصا. وفى النبات (كتاب النبات) الذى رتب فيه النباتات على حروف المعجم، واهتم بكامل ما قيل فيها نثرا وشعرا. ولعل أهم ما خلفه الدينورى هو كتابه فى الأنواء، أى الطقس أو الظروف الجوية، المسمى (تقويم قرطبة).

وهناك الزبير بن بكار وهو أبو عبد الله الزبير بن أبى بكر ـ ويسمى : بكار ـ بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، صاحب النسب، تولى القضاء بمكة للمعتصم العباسى، وبقى على القضاء حتى توفى سنة ٣٥٦ هـ. (وفيات الأعيان ٢ / ٣١١) وقائمة كتبه على شئ من الطول، وتتألف بصفة رئيسية من تراجم الشعراء : ولكن بعضها تناول أحداثا تاريخية.

وأصبح التاريخ عِلماً مكتمل البنيان، مع جهود كبار المؤرخين من أمثال محمد بن جرير الطبرى وكتابه "تاريخ الأمم والملوك [1]"، ويمثل كتاب الطبرى قمة ما

---

(١) ويذكر دكتور محمد محمود الطناحى أنه : يسمى أيضاً تاريخ الرسل والملوك. وقد طبع فى ليدن بهولاندا، من سنة ١٨٧٩م إلى ١٩٠١م بعناية المستشرق الهولندى دى غوية. فى (١٨) مجلدا. ثم طبع فى مصر عدة طبعات، آخرها طبعة دار المعارف عام ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م فى عشر مجلدات. ثم أفرد الجزء الحادى عشر لذيول تاريخ الطبرى. بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. وقد رأيت وصورت من الكتاب الجزء التاسع. من نسخة بقلم نسخى نفى من خطوط القرن السابع ظناً. فى (٢٢٥) ورقة. بمكتبة جامع الروضة من ضواحى صنعاء - اليمن.

وصلت إليه الكتابة التاريخية عند العرب فى فترة التكوين. فقد كان الطبرى طالب علم لا يعرف الكلل فدرس على يد أساتذة فى بغداد و الكوفة والشام ومصر وأستقر فى أخيراً فى بغداد.

وقد بلغ فى علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى فقد كانت نظرة الطبرى إلى التاريخ متأثرة بدرايته وثقافته كمحدث وفقهيه.

ولذا فإن طريقته فى نقد الروايات تتجه إلى الإسناد فى حين أن مصادر مؤرخون لهم منزلة موثقة فى حقولهم أو فى الموضوعات التى كتبوا عنها.

وهو يعبر فى كتابة عن فكرتين أساسيتين فى التاريخ : وحدة الرسالات من جهة وأهمية خبرات الأمة واتصالها عبر الزمن من جهة أخرى.

ومثل هذه الخبرات العظيمة الأهمية فى سلوك الأمة فى حالات الوحدة أو الإختلاف ؛ وهى فى الحالين توضح ما يصيب الأمة فى تاريخها ؛لأن قيم الروايات فى نظر الطبرى تعتمد على قوة أسانيدها ؛ وكلما كان السند أقرب إلى الحادثة كان أفضل ؛ فإن رأى الطبرى فيما أوردة يظهر فى تمحيصه للروايات والأخبار وأحذ البعض منها دون الآخر.

وهو يتجنب إعطاء حكم ؛ويندر أن فضل رواية على أخرى مادام قد أورد روايات مقبولة.وقد تأثر أسلوب كتابته بنظرته إلى الروايات ؛ فهو فى حرصه على إعطاء الروايات المختلفة حول حادث أو موضوع لا يستطيع تقديم تاريخ متصل للحادث.

ويبدو أنه أراد تصنيف كافة الروايات التاريخية العربية فى كتابة. وهذا يفسر العدد الضخم لمصادرة. وهدفه خدم كبرى قدمها الطبرى ؛وهو بذلك ينهى العصر الأول فى تطور الكتابة التاريخية.

ويبدأ تاريخ الطبرى بالخليقة ويتناول الرسل والملوك فى القديم وينتقل إلى تاريخ الساسانيين والعرب؛ ثم يتناول التاريخ الإسلامى حتى عصره (٣٠٢ هـ).

ونلاحظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة فى تسجيل الأحداث. أحدها تأريخها بالسنة والشهر، بل باليوم. ويصرح " بكل " مؤرخ الحضارة أن ذلك العمل لم يحدث فى أوروبا قبل ١٤٩٧ م. ونجده متطوراً عند الطبرى من بين المؤرخين العرب[١].

وهناك ابن الأثير[٢] صاحب الكامل فى التاريخ وابن خلكان (١٢١١- ١٢٨١ م) صاحب الكتاب الشهير وفيات الأعيان وهو أحمد بن محمد بن إبراهيم شمس الدين أبو العباس البرمكى الأربيلى الشافعى. مؤرخ وأديب عراقى. نشأ فى اربيل بالعراق، وتلقى العلم على الجواليقى وابن شداد فى حلب، وأمضى معظم حياته متنقلا بين الشام ومصر، قائما بالتدريس أو متوليا القضاء حتى توفى فى دمشق. وكان للابن خلكان نظم حسن، ومحاضرات فى غاية الجودة. وقد اشتهر بكتابه (وفيات الأعيان وأبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان) وهو معجم تاريخى يشتمل على ٨٤٦ ترجمة للمشاهير وقد بذل ابن خلكان جهدا كبيرا فى تحقيق تاريخ مولدهم ووفاتهم، وتقييد أسمائهم بالحركات، وتعريف الأمكنة والأشخاص. وقد أتم ابن خلكان مؤلفه عام ١٢٧٣ م

والذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ٧٤٨هـ)، أحد كبار المؤرخين المسلمين، ولد فى دمشق وتعلم بها ورحل فى طلب العلم، وبعد عودته قعد للتدريس والتأليف، ومن أشهر كتبه: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، وسير أعلام النبلاء.

وجاءت الطفرة على يد العلامة ابن خلدون الذى حدد قواعد البحث فى التاريخ فيقول فيقول :

"أما بعد: فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال، وتُشد إليه

---

(١) مرجوليوث : دراسات، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير : على بن محمد الجزرى الملقب بعز الدين (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل فى التاريخ (١٢) جزء- تحقيق النجار، دار الطباعة المنيرية ١٣٥٧هـ ، و طبعة دار صادر بيروت ١٩٥٧م، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٧٩م (طبعة ليدن) التاريخ الباهر فى الدولة الأتابيكية (تحقيق عبد القادرالطليمات ١٩٦٣- القاهرة).

الركائب والرحال، وتسموا إلى معرفته السُّوقة والأَغْفَال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال (أى الرؤساء) ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال. إذ هو فى ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفى باطنه نظر وتحقيق، وتعليل[1] للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع أسبابها عميق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق"[2] وللسخاوي[3] رسالة رائعة بعنوان: (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

ويمثل مسكويه[4] خطوة متقدمة فى الكتابة الموضوعية، فإنه على الرغم من معاصرة السلاطين والوزراء البويهيين لا نجده يمدحهم أو يتملقهم فى كتاباته. ولم يظهر ميلاً إلى تيار أو ملك أو اتجاه، بل حاول أن يرصد عصره ويحلل أحداثه بعقلانية، إلى درجة أنه لُقّب بالمعلم الثالث نظراً لتمكنه من الفكر الفلسفى والإفادة منه فى الكتابة التاريخية.

---

(١) تعد هذه المقولة من الإرهاصات المبكرة لفلسفة التاريخ.

(٢) ابن خلدون: المقدمة. ج١، تحقيق على عبد الواحد وافى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ م، ص ٢٨٢.

(٣) ولد السخاوى بمدينة القاهرة بحارة بهاء الدين على مقربة من باب الفتوح فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ / ١٤٢٨م فى أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية قام بالتدريس فى معظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية ومدرسة صرغتمش والمدرسة الظاهرية والبرقوقية والفاضلية وغيرها من المدارس، ثم درس حينا بمكة المكرمة وقرأ بالمسجد الحرام بعضا من تصانيفه وتصانيف غيره ولما عاد إلى القاهرة تبوأ مركز الزعامة الذى كان يشغله أستاذه ابن حجر العسقلانى، وقد توفى شمس الدين السخاوى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م

(٤) ابو على احمد بن محمد بن يعقوب الملقب احيانا بالخازن. مؤرخ وطبيب وفيلسوف فارسى. توفى عام ١٠٣٠م. ولد فى الرى، ودرس الفلسفة والطب والكيمياء القديمة. كان مجوسيا واسلم. خدم عضد الدولة، ورأس خزانة كتبه، وكان ايضا صاحب الحظوة عند الوزير المهلبى. ومسكويه من الفلاسفة الارسطيين الاخلاقيين الذين تبعوا ارسطو وحاولوا التوفيق بين فلسفته وتعاليم الإسلام. وقد رفع مسكويه من شأن الاخلاق، وقال ان الفلسفة لا تبدأ بالمنطق وانا بالاخلاق، وان سعادة الإنسان هى فى ان يبلغ كماله الإنسانى بسلوك الفضيلة.

وعلى الرغم من أن حياته كلها قضاها فى خدمة وزراء السلاطين البويهيين : المهلبى وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة، ثم فى خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين، وما دام شرف العائلة كان يرتكز على أعمال أوائلها، بالرغم من المعارك العنيفة التى نشبت فى الجيل الثانى منها، ولكن ليس من أى أثر لمثل هذا التحيز فى كتاب مسكويه (تجارب الأمم).

والأشخاص الذين منحهم مدائحه التى ربما كانت تميل إلى المبالغة هم الوزيران المهلبى وابن العميد، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه، ورويت أخبار مؤسسى دولة البويهيين دون أية محاولة لإخفاء جرائمهم، ووصمهم باتهام فظيع فى حالة معز الدولة.

وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الأنظار إلى محاسن إدارته، التى يظن أنها ترجع إلى تعليم ابن العميد الأول، ويؤمل أن تتكافأ الخدمات التى أداها للدولة مع الجرائم التى ارتكبها.

ونسب إلى ركن الدولة فضائل معينة، يبدو أن هذا السلطان كان يتحلى بها، ولكنه اتهم ركن الدولة بالتضحية بشئون رعاياه فى سبيل شعور أحمق بالإخلاص لأصدقائه.

وجعل من أبى الهيجاء ما يشبه البطل، وهو من بنى حمدان الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين.

والغريب أن المدائح التى أسبغها أبو شجاع على عضد الدولة بعد ذلك بقرنين مدائح مليئة بالتحمس، على حين كان مسكويه، الذى كان فى خدمته بذلك الهدوء والعدالة[1].

والتاريخ عند مسكويه هو أحداث يمكن أن يستفيد منها الإنسان فى أمور

---

(١) مرجوليوث : دراسات، مرجع سابق، ص ٢٤.

تتكرر، أو يمكن أن تحدث مستقبلاً، وأن أمور الدنيا متشابهة فى الإطار العام وعلى الإنسان تجربتها وبالتالى يمكن مقارنة الماضى بالحاضر للإفادة من خبرات الماضى مع مراعاة وضرورة ضرورة غربلة الأخبار من الأساطير والأسمار والمعجزات والخرافات والترهات ومحاولة تفسير أحداث التاريخ وفق منهج علمى تجريبى قائم على الحذر فى تلقى الروايات، والدقة فى تحليلها ولذا نجد أن مسكويه استفاد من فكره الفلسفى فى تفسير التاريخ. فهو بذلك أول من بدأ فلسفة التاريخ فهو موضوعى لا ينطلق من تصور مسبق. وحيادى فى قراءة مصادره والإفادة منها ولذا يعتبر كتابه : " تجارب الأمم " من أهم المراجع التاريخية لأنه سجل حى لأحداث القرن الرابع الهجرى. وقد سجل مسكويه تلك الأحداث من أصحابها وقام بتفسيرها على أساس الاستدلال الفلسفى الواعى، والنظرة العملية، والذهن البنّاء المنظم، والنظرة المحايدة.

ومن المصادر الهامة التى تناولت تعريف علم التاريخ، كتاب الكافيجى (المختصر فى علم التاريخ) الذى جاء فيه :

" أقول التاريخ فى اللغة هو تعريف الوقت، وفى العرف والاصطلاح هو تعيين وقت لينسب إليه زمانا مطلقاً سواء كان قد مضى أو كان حاضرا أو سيأتى. وقبل التأريخ تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوها من الآيات السماوية والعلاقات الأرضية، وقيل التاريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر وبين أوقات حوادث أخرى[1].

ويقول صاحب " كشف الظنون " أن " علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك وموضوعه أحوال الأشخاص الماضيين..... والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ".

---

(١) أحمد رمضان : المرجع السابق، ص١٩.

ويقول عنه المؤرخ المصرى "عبدالرحمن الجبرتى": أعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم.

ونتيجة لأهمية التاريخ فى حياة الأمة الإسلامية عدد الكتاب المسلمون فوائد التاريخ. يقول ابن الأثير " أن فوائد التاريخ كثيرة، ومنافعه الدنيوية والأخروية كثيرة " وقد عدد هذه الفوائد بقوله : "

- أن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء، وأنه لا يجد فرقا بين ما يراه ويسمعه وبين ما يقرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضيين وحوادث المتقدمين " فإذا طالعها فكأنه عاصرهم وإذا علمها فكأنه حاضرهم ".

- أن الحكام إذا وقفوا على سيرة أهل الظلم والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف استقبحوها وأعرضوا عنها، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، استحسنوا ذلك، ورغبوا فيه، وتحلو بمحاسن الأخلاق ".

- حصول الإنسان على العديد من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها " فيزداد بذلك عقلا، " ويصبح لأن يقتدى به أهلا ".

- ما يتجمل به الإنسان فى المجالس والمحافل من ذكر شئ من معارفها، ونقل طريفة من طرائفها فنرى الأسماع مصغية إلى، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره)"